أولادنا

الطفلة المستحيلة

بقلم : د. أميمة خفاجي



دار المعارف

أولادنا

٤٦

الطفلة المستحيلة

تأليف : د. أميمة خفاجى

دار المعارف

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

خفاجي، اميمة.

الطفلة المستحيله/ اميمة خفاجي. - القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٧

١٧٦ص، ٢٠ سم. (اولادنا، ٤٦)

تدمك ٤ ٥١٥٩ ٠٢ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - قصص الأطفال.
٢ - القصص العربية
أ- العنوان

ديوى ٨١٣,٠٢

رقم الإيداع ٢٤٦٠٥ / ٢٠٠٧

٧/ ٢٠٠٦ /٥٧

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

رسالة..!

الأسرُ أو الإعدامُ..

كلاهمَا يتساويَان..

لكنْ..! كيفَ يكونُ هذا هُوَ مَصيرهَا وحدهَا، دون سائرِ فتيـاتِ العالـمِ؟ بلْ كيفَ يحدثُ لهَـا كلُّ ذلكَ!! وأدهم مازالَ حيًّا عَلى قيدِ الحياة..!!

كانَ لزامًـا عليهِ، بلْ حقًّا وجبَ عليْـهِ إنقاذهَا، وَفكَ أسرهَا، وإطلاَق سراحهَا من تلكَ الزنزانةِ التِي تحيَا فيهَا حياةَ الفئرانِ والحشراتِ.

لكنْ..! كيفَ سيتسنَّى لهُ تَحْقِيق ذلكَ؟ وهيَ بكلِّ هذا الحجـمِ والوزنِ الهائـلِ الضَّخـمِ!! رغبةٌ مدمرةٌ.. تعتريهِ وهوَ يبذلُ قُصَارى جهْدِه لتهْريبهَا مِنَ المسْتَشْفَى.

خرجَ أدْهم.. تَحمله أشجَان على كتفهَا وَكأنه طفلٌ صغيرٌ.. ورغمَ ضآلة حجْمه، وصِغره، مُقَارنةً بهَا، إلَّا إنَّهُ كانَ كبيرًا.. شَـامخا وهو يحقـقُ خُطته في تهريبهَا.. فظلَّ يُرْشِـدهَا إلى الطريقِ الَّذِي حَدَّده لتهريبها بكل دقةٍ وبمنتهى الإتقان.

وسارًا سَويًّا.

كانَ الوقــتَ مُتأخراً والظلامُ يمــلأُ الأرجَاء.. وفى هذَا الوقــتِ مــنَ اللَّيــل لاَ ترى المَارة عــبرَ الشــوارِع والطُّرقِ إلَّا نادرًا.. ومنْ هؤلاءِ القلَّةِ النَّادرِة كانَ لا يراهَا أو يلمحهَا أحدُ المَارة إلا وَتَســمَّرَتْ قدماهُ، وشلّت حَركتُهُ مِنْ هولِ مَا يشــعرُ به، لمجَّرد النظرِ إليهَا، وبسرعةِ البرقِ تختفِى عَنْ نَاظِريْه.

فيخالهَا الـمَارَّةُ شــبحًا منْ أشــباحِ الظلامِ، أوْ هاجسًا مِنْ خيالاتِ الفكرِ التِى تُطَالعهُمْ بهَا وســائلُ الإعلام ليلاً ونهارًا عنِ البنتِ المتوحشــةِ، والأمراضِ التى تَجْتَاحُهَا، فراحُــوا يتخيلونها قبالتهُم فِى كلِّ وقْــتٍ.. وَكلِّ حينٍ، منْ كثرةِ الخوفِ والرعــبِ والفزعِ الذِى أصَابهم من جرّاء الحديثِ عنهَا.

فراحتْ صورُها المفزعةُ تترَاءَى لَهم فِى كلِّ حينٍ.. فى النــوم، واليقظةِ، بلْ وفِى أثناءِ ســيْرِهمْ فِى وَضح النهارِ أصبحُوا يرونهَا أمَامهم.

وظل أدهم يصفُ لهَا كيفَ سيتحققُ أملُه أخيرًا:

- سَــأُؤَمِّنُ لنَا مكانًا لَنْ يعثرَ عليْهِ أحدٌ، لنعيشَ ســويًا بعيدًا عنِ الناسِ والخوْف.

بسُخريةٍ ويأسٍ تَرُدُّ: بعيدًا عَنِ الناسِ..!

لَـمْ يُعِرْ أدهَم ســخَريتهَا تلكَ أدنى انتبَاه، بلْ ســألهَا ليخرجهَـــا مِنْ ظُلماتِ اليأسِ التِي كانتْ تملؤهَا، عنْ تلكَ الأوراقِ التِي سَألتهُ أنْ يأخذهَا معهُ وكانَ يحملهَا وَيطويهَا تحتَ ذِرَاعِهِ:

- مَاذَا كتَبتِ فِي هذِه الأوراقِ يَا حبيبتِي؟

- رِسَالة.

- إلى مَنْ؟

- إليكَ أنتَ يا أدهم.

- هَلْ أَنَا بعيدٌ عنكِ إلى هذَا الحد، لتكتبِي إلىَّ رِسالةً؟

- كانَ لا بديلَ أمَامي، ولا مفرَّ لديَّ، سوَى كتابتهَا.

- هَلْ هَذِه الأوراقُ كلُّهَا..! مُجرّدَ رسَــالة..! رسَــالة وحسْب.. أمْ أنَّ هناكَ اعترافًا مَا؟!

- كَلَّا.. ليسَـت اعترافًا.. لكنهَا رِسَـالة.. وحسْب.. فليسَ هنَا مَا أَسـرُّهُ عنكَ، وأخفيهِ يا أدهم لأعترفَ لكَ به الآن.. لَا تفـرِّطْ فيهَا يَـا أدهم.. ولتقرأْهَا مَلِيًّا.. عَسَـاهَا تذكـركَ بِي دائمًا فهـي حَيَاتي.. وحياةُ امـرأةٍ تملَّكتهَا غريزةُ الأُمومةِ واجْتَاحتهَا.. فقضَتْ عَلى حَياتهَا وحَياتي كتبتُهَـا بعدَ أنْ قرأتُ الحقيقةَ، كمَا صوَّروها فِي الصُّحُفِ والمجلَّاتِ.

كنتُ أريدُ أنْ أعرفَ سـرَّ عَذابي.. ربمَا إنَّنَا أوْ إنَّني عَلى وجْـهِ التَّحْديـدِ.. اقترفتُ الكثيرَ مِـنَ الآثام قبلَ أنْ أُولَد!! أو ربمَا سـننعمُ بالكثيرِ منَ السـعادةِ بعدَ أنْ نموتَ..!!

وإلا لمَـا احتوَت الحيـاةُ والدنيَا عَلـى كلِّ هذا القدرِ الهائلِ مِنَ المَعَاناةِ والعذَابِ والآلام..!

لقـد أَماطتِ اللِّثام عَنِ الأسـرارِ الَّتـي حُجِبتْ عَنِّي طـوالَ حَيَاتيِ، لكنهَا كانتَ ليسَـتِ الحقيقةَ كلَّهاَ.. فقد كانَ شيئًا مَا.. ينقصُهَا.

شيءٌ مَا..! وَهَذَا هُوَ مَا جعلَ أحداثهَا تلكَ غيرَ متكاملةٍ.. مَبتُورةٍ وهذَا الشيءُ هُوَ مَشَاعرى أَنَا.

كتبتهُا كلَّهَا.. بلَا بتْرٍ.. بِلَا حذْفٍ.. بِلَا خجَلٍ دَوَّنتهَا كاملةً.. منْ أجلكَ أنتَ. أنتَ وحدكَ.. يَا أَدهم فأنا كتبتُ إليكَ أَسرارِى ومَشَاعِرِى الَّتِى لا يعلمهَا أحدٌ سِوَاىَ.. فَهِىَ سِرُّ حَيَاتِى. وقدْ فَسَّرتْ حِكَايتى المنشورَةُ أسرارَ أمرَاضِى، وفكَّتْ شَـــفرةَ حَيَاتِـيِ.. وحلّتَ لغزهَا.. فلمْ تعدْ أُســـطورَة بعد.. ولَا لغزًا.. بلْ أصبحَت حقيقةً.. مُفزعةً.. مرعِبةً.

لكنهَا فِى نهايةِ الأمْرِ.. دَعْوة للحَيَاةِ.

– لِحَياتِنَا سوِيًّا يَا حَبِيبَتِى.

واقتربَا مِنْ حافَةِ الطَّرِيقِ الزِّرَاعِىِّ..

وكانتِ الشمسُ تفكرُ فِى خلْعِ ردائهَا الأَسوَد لتخرجَ مِنْ سُـبَاتهَا.. فأجلسهَا أدهم فِى مكانٍ هادئٍ، خَفِىٍّ وَقَدْ نجحَ فِى الابتعَادِ والاختفَاءِ عَنْ عيونِ الآخرِينَ وجَلسَت لترتَاح.

كَمْ كانتْ بحَاجةٍ مَاسَّة إلى تلكَ الراحَةِ.. تشعرُ وكأنـهَا لمْ ترتحْ فِى حَياتهَا سِوَى الآنَ.. الآنَ فَقَطْ.

ورقدتْ أشجَان.. فوقَ حَشَائشِ الأرضِ الزراعيَّةِ تحتَ ظلالِ شَــجَرةٍ ضخْمةٍ.. لكنْ أشجانُ أيضًا كانتْ ضَخْمة.. بلْ وَهَائِلةَ الضَّخَامَة.

أَغْمضَت عَيْنيهَا..

وراحتْ فِي سُباتٍ عميقٍ.. وَكأنهَا لَمْ تنعَمْ بهذَا الهدُوءِ وتلكَ السكينةِ منذُ عهدٍ طَويل. وكمْ بلَغتْ سَعَادةُ أدهم وهُوَ يَرَاها هكذاَ.. نائمَةً.. هَادِئَةً.. مُطمئنةً بِجَانِبه..

وَظَلَّتْ عيناهُ تحرسَــانهَا.. كانَ يراهَــا بُعيُونه.. هُو.. هُوَ وحسْــب.. فهوَ لمْ يرهَا مُتوَحّشــةً مُتضخِّمَةً كمَا يراهَا الآخرونَ.. كلَّا.. فهِيَ عَرُوسه.. الَّتِي سَتظلُّ دائمًا جميلةً رقيقةً..حتَّى خُيِّلَ إليهِ الآنَ، وهو ينظرُ إليهَا، وَهيَ غَارِقة فِي سُبَاتهَا وَكأنهَا «الجَميلَةالنَّائِمَة».

ونشــرَ رسالَتهَا أمامَه، وراحَ يقلِّبُ فِي صَفَحاتهَا بلَهْفةٍ ليقرأَهَا قبلَ أنْ تَسْتيْقظَ مِنْ نومِهَا.

* * *

السر الغامض...

سبحَانَ اللَّه..!

نفسُ الشَّكْل..!

الشـعرُ الأسَـودُ، والعينانِ السَّـوْداوتَانِ ذَوَاتاَ البريقِ اللَّامعِ الخَـلَّاب، اللَّتانِ تتوسَّـطَانِ الوجْـهَ الخَمْرِيَّ، السَّـاحِرِ الجَميلِ. هيَ نفسُـهَا.. ملامـحُ طفلتهَا. وقدْ عـادتْ إليهَا مِنْ جَدِيد. رُدَّت إليهَـا بعدَ طُولِ غيَابٍ، وكأنهَـا لمْ ترحـلْ عنهَا بَعْد.. وبينَ البـكاءِ والضحكِ، والجدِّ واللَّعبِ، كَبُرتْ أشجَان..

خرجَت مِـنْ غُرفتهَا زَهْرة رَقِيقَة. تتحرَّكُ عَلَى أطرافِ أصَابعهَا، وكأنهَا تَطِير.. لا تسيرُ، فتبدُو كفراشَةٍ هَائمةٍ.. تغريكَ باللَّحاقِ بهَا.

الجميعُ ينتظرونهَا فِي ردْهَة البيتِ الفاخرةِ الفسيحَةِ، وبينَ الأقاربِ والأصْدقـاء. بحثَـتْ عيناهَا بينَ هذَا وذاكَ عَنْ شـخص بعيْنِهِ، كانَا دائمًا مُتَلازمِيْن، لا يفترقَانِ فِي المدرسَـةِ، وبمجَرَّدِ أنْ وقعَ بصرُهَـا عليهِ تورَّدت وَجْنتاهَا

خجَلًا.. وانبعثتِ الحرارةُ منْ وجههَا.. وتقابلتْ رموشُها بسرعةٍ فِي قُبُلاتٍ خَاطفةٍ، مُضطربةٍ، لتُخفِي خَجَلَها.

نهضَت أُمُّهَا «ضَحية» منْ مقعدهَا، تنادِي عليهَا:

- هيًّا يَا حَبِيبتِي، ضعِي أربعَ عشرةَ شمعةً بنفسكِ، وَلَا أَكْثر، فَلا تخدعينَنَا وتضعِي أربعًا وعشرينَ. تَلفتتْ أشــجانُ يمينًا وشمَالًا بحثًا عَنْ «دنيا» فَسَألتْ أُمهَا بتلعْثمٍ وَخوْفٍ وتوجُّسٍ:

- لكنْ.. أينَ.. أينَ؟

- عَمَّنْ تبحَثِينَ؟ الجميعُ هنَا حَوْلكِ وفِي انتظارِكِ، هَيَّا لتطفِئِي الشموعَ يَا حَبِيبتي.

نظرتْ خلفهَا بِتعَثرٍ:

- لكنْ أينَ دُنْيَا؟

بغضبٍ وتعصُّبٍ أجابتْها أُمها:

- دُنيَا، دُنيَا، هيَّا حتىَّ لَا تتأخرينَ عَلى ضُيُوفكِ.

- لكــنْ، أرجــوكِ يَــا أمــي، لا تغْضِبيهَا فــي عيدِ مِيلَادِي.

أرجُوكِ.. دَعِينى أناديهَا.

جلسَت أشجانُ بجوَارِ دُنْيَا عَلى الفرَاش..

تجذبهَا وتدفعهَا للنُهوضِ قَائلةً:

- هَيَّا مَعي إِشْ إشْ حَبيبتك.

ابتسَمت برضًا عَذْب.

فألقتْ أشجَانُ بنفسهَا بينَ ذراعيْهَا وقَالتْ:

- لقــدْ كبرْتُ فِي هذَا الحضْن الــذِي يمنحُنِي الحنانَ والأمــانَ، ولَنْ أتنــازَلَ عَنْهُ أبدًا.. فأرجُــوك.. لَا تبتعِدِى عَنِّــي، فأنَا جزءٌ مِنكِ، هيَّا حتَّــى لَا تنزعِج أمِّى وتنْطَلقَ الكلماتُ منْ فمهَا كالرصَاصِ.. هَيَّا.

وَبسُــرعةٍ ارْتَدتْ دُنيَا رداءَهَا البَســيطِ، كانتْ جَميلة، فهِيَ شَــقراء جَذَّابة، ليستْ بحَاجةٍ لوضْعِ أدوَاتِ وأقنعَةِ التجْميلِ.

كانــتْ أشــجَان تتحركُ بســرعَةٍ، وكأنهَا تنــطُّ وتقفزُ كالعَصَافير، تغمرهَا الســعادةُ منْ كلِّ جَانبٍ، ربمَا لوجُودِ أدهم، زميلهَا وَرَفيق دِرَاستهَا، وربمَا لمحَاولةِ إقامَة هُدْنة مِنَ الصُّلح والوئَامِ بينَ أمهَا وَدنيَا، الَّتِى تحسِــنُ مُعَاملتهَا وَرعَايتهَا.

وقـف الجميعُ حولَ طَاولة الضَّيافةِ والاحْتفَالِ فِي مأْدبةٍ مِنَ الفرح والسَّعَادة.

نظـرتْ حولهَا يمينًا وشمالًا مَا أجملَ هذَا الحَشْدَ البَديع. كلُّ مَنْ تُحبُّهم يُحِيطُونَ بهَا، يحتفلُونَ بيوم مِيلَادهَا.

كانَ أدهم يقفُ يتأمَّلهَا بِحُبٍّ وإعجَاب.. توارتْ دنيَا عَن الأنظار. كَانت تلاحظُ بِشعورِ الأُم، تبادُل تلْكَ الرسَائل بينَ كلٍّ مِنْ أدهم وأشـجَان، عَبْر نظرَاتهمَا المتبادَلةِ التِي تكشِفُ عَمَّا يُخفيانِه وَيضمرَانهِ منْ حُبٍّ وَعَاطفةٍ، بريئَةٍ، جَميلةٍ.

كانَ أدهم يقفُ فِي مُواجهتهَا مِنَ الطَّاولة مُبَاشَرة.

ابتسـمَت دنيَا وهيَ تلمحهُما، وقـدْ خُيِّلَ لهَا أنهَا أمامَ وُجُوهِ لعرَائس قِصَص الأطفالِ الملوَّنة، فكانَ شعرُ أدهم يتدلَّى أعلىَ جَبينِه فِي خصَلاتٍ ناعمَةٍ، لامعَةٍ، وعيناهُ الواسِعتانِ تتحركَانِ طوالَ الوقتِ بِقلَقٍ مُحِب، مَكتوفِ اليديْن.

تلفتَتْ أشجَان مرةً أُخرى لتبحَث عَنْ دُنياَ، فقد أدهشهَا اختفاؤُهَا مرةً أُخرى.

قَلِقَ أدهمُ وَاقتربَ مِنْ أشجانَ قبلَ تهنئِتهَا يَسْألهَا:

– عمَّنْ تَبْحثِين؟

- عَنْ دُنيا. أينَ اخْتفتْ.

وأسرعَت قبلَ تقطيعِ- التُّورتَة- تنادِى عليهَا...

دُنيا.. دُنيا.. دُنيا..

وارتفعَ صوتُ الموسيقَى صَاخبًا، وَتعالتِ الضَّحكَاتُ.

كانتْ دنيا بمفردِهَا تتوسَّطُ غُرفتهَا، تمسكُ بإحدَى عَرَائس أشجَان.. فقالتْ لهَا أشجانُ بلَوْمٍ وَعِتَابٍ:

- أتتركينَ عَروسـتكِ إشْ إشْ لتجلسِـى مـعَ «بَارْبى» العروس الصِّنَاعية؟

لفَّتْ دُنيا ذراعيْهَا حولَ أشجان تحتضِنها بفرحٍ وشعرَتْ بأنَّ فتاتهَا كَبرتْ وَتُحبُّ وعريسُـها موجودٌ أمامهَا.. فقالتْ لهَا:

- كلُّ عام وأنتِ بخيرٍ يا حَبيبتِى.. أصْبحْتِ عروسًـا وَأخرجَـت علبةً صغـيرةً فتحتْهَـا أشـجَان، فوجَدَت عروسَـيْن يتراقصَانِ عَلى أنغـامٍ انبعثتْ مِنَ العلْبةِ الفضيَّةِ فور فتحِهَا.

خرجتْ أشجَان.. تمسكُ هَديتهَا، فرحةً بهَا كَطِفلةٍ صَغيرةٍ، ومنْ بينِ أصْدقائهَا اقتربَتْ مِنْ أدهم لِتريَهُ هديَّةَ دنيا.

– انظرْ يا أدهم.. مَاذا تَرَى؟ لقدْ أَهْدتنى أُمّى الصغيرةُ، أُمّى الحبِيبةُ هَذِه الهدِيّة.

اندهشَ أدهم قائلًا:

– هلْ دنيا أملكِ يَا أشجَان؟

كَلّا يَــا أدهم، لكننِي أشــعرُ أنهَا تُحبنى أكثرَ مِنْ أُمّى الحقيقيَّــة.. فهــىَ مِثلُ أُمّى تمامًا، وَلاَ أخفيكَ ســرًّا فأنَا أُحبهَــا أكْثر مِنْ أُمّى، لقربهَا مِنّى، وحبهَا، وَفهمهَا لى. فَأَنــاَ لِى أُمّان، أمٌّ كبيرةٌ وأُخــرى صغيرة. ومَا العجبُ فِى ذلكَ؟ انظرْ.. انظرْ، مَاذا تَرَى؟ بلْ مَا رَأيك؟

أشارَ أدهم بإصْبعهِ عَلى العرُوس الرّاقصَةِ قَائِلًا:

– مَنْ هَذهِ العَروسَةُ؟ هلْ هِىَ أَشجَان؟

– كلاّ.. إنـها إِشْ إِشْ.

– مَنْ؟

– إش إش.

– إش إش.. جميلٌ هذَا الاسْم مَنْ أَطلقه عَليكِ؟

– أمِّى دنيا.

دونَ أنْ تـدرِى أَطلقتْ عليهَا كَلِمةَ أُمِّى، شـعورٌ خَفِىٌّ يفرضُ نفسَه عليهَا، فلمْ تعدْ بقادرَةٍ عَلَى مُقاومَتِهِ.

– كَمْ هِىَ رَقيقَة يَا إش إش.. أنا أيضًا أصبحْتُ أحبهَا مِثلكِ تمامًا.

جرتْ أشجَان وأسْرَعت تعدُّ صَحْنًا مِنْ أشهَى المأكولاتِ لتقديمِهِ لدنيَا..

– مَا رَأيكِ يَا أمىّ فهذَا مَا تَخيرتُهُ لكِ؟

كادَ قلبهَا يقفزُ مِنْ بينِ أضْلاعها فرحًا، وَسعادةً بكلمَةِ أُمِّى.. لأولِ مرَّةٍ تناديهَا بِأمى.. دونَ طلبٍ أَوْ إِشارةٍ أوْ حتىَّ مُجَرد تَلْمِيح.. كَمْ أسْعدتهَا تلكَ المنَادَاة.

فقالتْ لهَا:

– أرجـوكِ يَا حبيبتِـى، لا تكررى تلكَ المنَـادَاة مرةً أُخـرى وإلَّا سمِعَتـكِ أُمـك، وَظَنَّتنِى حَرَّضتـكِ وَدَفعتكِ عَلَى ذلكَ!!

قالتْ أشـجَان بعنـفٍ بعـدَ أَنْ ضَاقتْ ذرعًـا بلوائح المحذورَاتِ، وقوائم المنوعَاتِ التِى تفرضهَا عليهمَا أمها ليلاً ونهارًا.

- وماذا في ذلك؟

- فِي ذلكَ حِرْماني مِنكِ يَا حَبيبتي.

- أتظُنينَ أنَّ أُمِّي بوسعِهَا التَّفْريق بينَنَا؟

- إذا شعرتْ بِهَذا الحُبِّ، لَنْ تَتَردد في التفريقِ بينَنَا، فهِيَ تحبكِ كثيرًا، ولنْ تسمحَ لمخلوقٍ عَلَى وجهِ الأرضِ أخذكِ منهَا.

- لكنَّكِ تُحِبِّينني أكثرَ منْها، ثُم أنني لستُ حِكْرًا عَليْهَا، فأنا لستُ مِلكًا لهَا، وَأنا أُحبكِ كثيرًا، لكنني لا أعرفُ لمَاذَا أنتِ دائمًا...

قاطعتهَا دنياَ وهيَ تدفعهَا نحوَ الباب بلطْفٍ:

- الوقتُ ليسَ مناسبًا لإثارةِ تلكَ الأسئلةِ الآنَ، اخْرجي لضيوفكِ وأصْدقائكِ، وارقُصي والعَبِي مَعَهم.

- أألعَبْ!! أتظنينَ أنِّي مَازلتُ صَغيرة.

- كلاَّ يَا حَبيبتي.. لقدْ كبرْت.. كبرْتِ جدًّا ونضجْتِ وأصبحْتِ عروسَةً..

خرجَت أشجان مُتظاهرةً بأنهَا نفضَتْ كلَّ الهواجسِ منْ رأسهَا.. كانتْ أُمها مَشْغولة بضيَافةِ المدعوِّينَ للحفْل.

وفجأةً دقَّ جرسُ الهَاتف.

أسرعَت أشجَان لتجيبَ عَليْه..

قالَ المتحدثُ باللُّغةِ الإنجليزيَّة:

- ضَحيَّـــة هَلْ خَابرْتكِ فِي وقتٍ غيرِ مُناســبِ، أسمعُ صَخْبَ مُوسيقَى وَأغانِى؟

- لستُ ضحيَّة.. مَن المتحدِّث؟

- مَعْذِرة.. هَلْ منَ الممكنِ التحدُّثِ معَ الســيدةِ ضحيَّة مِنْ فَضْلكِ؟

- إنهَا مَشْغولة الآن.. مَنِ المتحدِّث؟

- أنا أنتِينُورى.

أســرعَت ضَحِية تجرِى نحوَ أشــجَان، عندمَا سَمعتهَا تتحــدَثُ بالإنجليزيّــة، وخطفتْ سَمَّاعــةَ الهاتفِ بفزعٍ منْ كفِّ أشــجَان.. وبطريقةٍ غير لَائقةٍ أدهشَت أشجان، وَأثارَت فُضُولَهَا، وهىَ تقولُ لهَا بِتوجُّسٍ:

- عُودى يا حَبيبتِي لأصدقائِكِ وحفلتِكِ.

- مَنْ أنتينورى هَذا يَا أُمى؟

- اذهَبِى الآنَ.

وجذبتِ الأمُّ الهاتفَ بأكمَله لنقْلِهِ داخلَ غرفتهَا وأغلقَت دُونهَا البابَ.

لاحظَ أدهم تغُّيرَ وتبدُّلَ أشجَان، فَقالَ وهُوَ يُشيرُ بأصْبعهِ عَلى طَبقِ المَأْكُولات:

– وأنتِ يا إش إش.. أتتنَاولى شيئًا مَعِى، هيَّا تفضَّلى، لقدْ أكلْتُ نصْفَ هذَا وعليكِ بالنصْفِ الآخرِ.

لَمْ تَسْمعْهُ أشجَان، بلْ كانتْ شَاردَة فِى الهاتفِ وأنتينورى وَعِلاقتهِ بأمهَا، واضْطرَاب أمهَا لسمَاع اسْمه، ومحاولتهَا إخْفَاء الحديثِ الَّذِى يدورُ بينهمَا، كانتْ حَائرة لغُموضِ أمهَا وَتَصَرُّفاتهَا، وقسوتهَا مَعَ دنيَا، وَلمْ تنتبَهْ أشجَانُ مِنْ شرودهَا إلا بنداء أدهم عليهَا المُتكرِّر.

– إش إش.. إش إش.. أينَ ذهبتِ؟

– كلاَّ يَا أدْهَم هيَّا بنَا.

– إلى أينَ؟ ألمْ تسمَعِى مَا قُلته لكِ؟ أُريدكِ أنْ تَأْكلى ممَّا أكلتُ منه ليكمِّل كلٌّ مِنَّا الآخرَ.

مَدّت أشـجَانُ يدهَا وَقد أثارَت أُمُّهَا حُزْنًا دَفِينًا فِي نفسـهَا، حُزْنًا طالمَا عَجَزتْ عَـنْ إخْفائه. لقدْ تركتهَا وأسرَعَت إلى غُرفتها لتحَادِثه كيفمَا تشَاء، لقدْ حرّكتِ الجمرَ النائمَ فِي كيانهَا.. لتثيرَ حولها جوًّا مِنَ الحيرَة والقلق مِنْ جديدٍ.. عاصفةٌ مِنَ الهواجسِ والشكوكِ تنبعثُ مِنْ داخلهَا لتحطّمَ سُكُونَهَا وهدوءَهَا وَكلَّ مَا يحيطهَا.

لماذا تُخفي الأمُّ عنهَا أشـيَاء لا حصْرَ لهَا؟! لماذَا دائمًا تتهامسُ مَعَ أبيهَا وعندمَا تقتربُ منهما يقطعانِ حديثَهُمَا باضْطراب؟ قطعًا لأنهمَا يُخفيانِ سِـرًّا مَا، مُتعلقًا بهَا هِي علـى وجْهِ التَّحْديدِ.. وربمَا مُتعلقًا بدُنيا؟ ولماذَا تكرهُ دنيا كلَّ هـذِه الكراهيةِ وتبغضهَا؟ ولماذَا تعيشُ بينهمَا دنيا إذا كانتْ رَاغِبة عنهَا.. زاهدَةً فِيهَا؟

فِي لحظةٍ واحدَةٍ.. تغيّرَ لَوْنها.. واصفرَّ وجهُهَا..

وتاهَتْ عَنِ الحُضورِ.

وَعبثًا حاولَتْ قدرَ اسْـتطاعتهَا، إخفَاءَ مَا بهَا منْ قَلَقٍ وَحيْرةٍ واضْطِرابٍ حَتَّى يَنْتهِيَ الحَفْلُ. لكنّ أدهم بسُـرعةٍ تحوّلَ مثلهَا.. قلقًا لشُـحوبهَا، حائرًا لشرودِهَا.. أسْرَعت

أشـــجَان بعدَ انتهاءِ الحفلِ إلى غرفةِ أمهَا، وكمْ ظلّت تنقُرُ وتقــرَعُ عَلى البــابِ بأناملِها الرَّقيقةِ الناعمَــةِ. لكَنَّ أمهَا تظاهرَت بالنومِ، هربًا مِنَ الإجابةِ عليهَا. فَلاذت أشجَان بدنيَا تسألهَا علّهَا تريحهَا:

– أتعرفينَ شخصًا يُدْعى أنتينورى؟

اهتــزّتِ الأرضُ مَنْ تحتِ قدميْهَــا، زلزالٌ كادَ يقضِي عليهَــا بسـمَاعهَا اسْمُــه.. وامتقــعَ وجهُهَا وَهِــىَ ترددُ باضْطرابٍ وخَوْفٍ:

– أنتينورى!!

* * *

لبن العصفور حقيقة ..!

اندهَشتْ أشــجَان هَل الجميعُ يعرفونَ أنتينورى هذَا، وَلاَ يجْهله أحدٌ سوَاهَا؟

- مَنْ هُوَ أنتينورى هَذَا؟

- اسْألي أُمكِ يا حَبيبتِي.. فأنَا لاَ أعرفُ شيئًا.

- وَأنا الآنَ أسألُ أمّي.. ألسْتِ أُمّي؟ فلاَ تكذبينَ عليّ، فالكذبُ لا يعرفُ طرِيقهُ إليكِ.. وإذَا كنتِ حقًّا لاَ تعرفِينَ؟ فلمَاذا امتقعَ وجهكِ واضطرَبْت عندَ سمَاع اسْمه؟ إذَا كنتِ حَقًّا لاَ تعرفِينَهُ!! لماذا تخفِينَ عليّ الحَقِيقةَ؟!

حتّى أنــتِ لا تحبين أنْ تريّحِينــي، إنكمَا تخفيانِ عَنــيّ أشــياءَ كثيرةً، ولاَ أحدَ يُجيبُ عليّ كلّ الأســئلةِ الّتِي تدورُ برأسِــي فتكادُ تعصِفُ بــي. إنكمَا تتضافرَان عَلىَ تعْذِيبي.

تمَزّقَــتْ دُنيــا وَهِيَ تراهَــاَ تتلظىّ بنيــرَان الحيْرَة، والقلقِ، وهي تقفُ عَاجزةً، مكتوفةَ اليديْنِ. لاَ تستطِيعُ الإجابَةَ عليهَا.

- أيةَ أسئلةٍ تلكَ؟ وَلمَاذَا تَشْغلينَ نفسَكِ بأشياءَ لاَ عِلاَقة لكِ بهَا؟

- كَلاً.. أنتِ تعرفيـن جيدًا أنَّ كلَّ مَا يحدثُ لهُ علاَقة بِـى، وَإلاَّ فمَا الدَّاعى إذَنْ لإخْفَائـه عَنىِّ؟ إنكِ تعرفينَ كلَّ شىءٍ.. مِمَّ تخافينَ؟ وإذَا كانتْ أُمىِّ حَقًّا تكرهُكِ فلمَاذا تَتْركُكِ تعيشـينَ مَعَنا، فِى بيتٍ واحـدٍ؟ مَا الذِى يضطرهَا ويجبرهَا عَلَى ذلكَ؟ مَا الذَى يضطركِ علىَ تحمُّلهَا فِى سبيلى؟!!

-إش إش حَبيبتِى.. لَا دَاعى لكلِّ هذَا القلق، صَدِّقِينى يَا حَبيبتِى لوْ كنتُ أعرفُ شَيْئًا مَا، مَا أخفَيتُه عنكِ.

تركتهَا أشجَان وهِىَ لاَ تزالُ مُضْطربة، حَائِرة، غيْر مُقتنعة بإنكَارها مَعْرفة مَا يَحْدث. لكنْ..! وَمنذُ هذِه اللَّحْظة قررَتْ أشـجَان أَنْ تفهمَ وَتعِىَ كلَّ شىءٍ، فهِىَ لمْ تعدْ صَغيرة، لقدْ كَبرت، كبرتْ كثيرًا. فالأمرُ يختلفُ الآنَ أشدَّ الاختِلاَف.

كَبرَت أشـجَان. أصبحَت عروسًا مِنْ عرائِس الخيالِ.. ولكنهَا عروسٌ حائرةٌ، دائمةُ التفكُّر والتأمُّل. لاَمعةٌ عيناهَا كالمرآةِ.. تكشـفُ لناظريهَا عمَّـا بداخلهَا منَ اضْطِرَاب، وقلقٍ،وَعذابٍ. وابتسامتهَا العذْبَة، وَضحْكَتِهَا السَّاحِرة..

الَتِي لا تشبهها ضِحْكة أنثَى فِي العالم، فليسَتْ بالضحْكةِ الهادئــةِ ولاَ الصَّاخِبة، ولكنهَا ضحْكتهَا هيَ، هيَ وحدهَا التِي تَضْحَك تلكَ الضحْكة السَّــاحرَة، فهِي تضحكُ بملءِ فيهَا، فتشعركَ وكأنهَا لا تضحكُ هكَذا أبدًا لأحدٍ سوَاك.. نابعَة منْ قلبهَا الصَّغير ضِحْكتهَا تلكَ.

هِيَ وحدهَا التِي تمتلكُ تلكَ العذُوبة السَّــاحِرة، الخلاَّبة، فتسرُّ الناظرَ إليهَا، لتزيل كلَّ مَا بهِ منْ أحــزانٍ وَهُموم وَآلام.

رشِيقة هِيَ.. كالفراشَة، تسبقُ فتياتهَا اللاَّتِي يتحرَكْنَ، فتظُــنُّ عندَ رؤيتهَا أنهَا تطيرُ لاَ تسِــير، وَقــدر هذِه الرقَّةِ ونُعومتهَــا، قدرَ خشــونَة أدهم وَفُتوته. كانــتْ ضفيرتهَا السَّوداء التِي تتدلىَّ عَلى صَدْرها تصلُ إلى خِصرهَا الدقيقِ وكأنــكَ أمامَ قانون مِنْ قوانيــنِ الطَّبيعةِ الذى ليسَ بهِ أيُّ خلــلٍ أو عجزٍ أو نقصٍ.. فيصعبُ عليكَ العُثور فيهَا عَلى غلطةٍ واحدَة بجسدهَا الجميل، الرَائع الحُسْن والجمَال.

يكفِي نَظْــرة واحدةٌ منهَا لتعلَمَ كلَّ مَا تخفيهِ وتســترهُ وتبطنهُ بداخلهَا، عينانِ شفَّافتان.. كالمرآة، تعكسُ كلَّ مَا فيهمَا.. دونَ تحدُّثٍ أو كلام أو حَتَّى مُجردِ إشارَة.

لكنْ مَا بِالهَا اليومَ تمشــى بخطــوَاتٍ بَطِيئةٍ علىَ غيرِ العَادة، كانتْ تفكرُ فِي حُزْن دنيَا، وقســوةِ أمهَا عليهَا، وَفُتورِ أبيهَا (ســرحان)، وعدمِ اكتراثهِ بمَا يحدثُ بِــوَى إرضَــاء أمهَا، كأنَّ كلَّ مهمتــه فِي هَذا البيتِ، وَدوره فِي الحياةِ هُوَ إرْضاؤهَا وحَسْــب.. أحيانًا تشعرُ أنه لا توجدُ صِلة مَا تربطهَــا بِهذَا الرجُلِ الــذِى يُدْعَى أبوهَا، لوحةٌ غريبةٌ.. مِنْ صُنْع الحيَاةِ، لا تفارقُ عينيهَا.

كانتْ تســيرُ كعروسٍ مُتحرِّكةٍ، حَتَّــى أدهم لمْ تبصرْهُ عيناهَا، كأنه ليسَ واقفًا كعَادتهِ فِي انتظارِهَا يُنادى عَليهَا بينمَا هى تسيرُ كالنائمةِ أو التائهَة:

– أشجَان.. أشجَان.

التفتتْ بغتةً، فانتفضَت ضفيرتُهَا الطَّويلَة للخلفِ وهىَ تَهْمِس: أدهم!!

بسرعةٍ علت الفرحةُ وجهَهَا.. كمْ هِىَ بِحاجَةٍ إليهِ الآنَ أكثرَ منْ أىِّ وقتٍ مَضى.

كانتْ مجرّد رُؤياه تريحُهَا مِنْ أيةِ حيرةٍ تعتريهَا، تنقذُهَا مِنْ عذابِ الشكِّ وَقلقِهِ.

– أشـجانُ منذُ عيدِ ميلَادكِ وأنـتِ عَلى غيرِ مَا يُرَام، دَائمَة التَّفكير، شَـاردةَ الذهنِ، مَاذا بكِ؟ إذا كنتُ لسـتُ أهلًا لثقتكِ، فليسَ هناكَ مَعْنى وفائدَة لوجُودى إذَنْ!

جَمَعتِ كلَّ قواهَا لتبتسـمَ، بلْ لتخفىَ كلَّ مَا فيهَا مِنْ ألم وَعذابٍ عَنه، فجاءتهُ ابتسامتُهَا تلكَ فَاترَة، حَائرة:

– كيـفَ تقولُ ذلكَ القولَ يا أدهمَ؟ أنتَ لا تعرفُ إذَنْ كَـمْ هُو قدْرُكَ عِنْدى.. أنَا أحيانًا أشـعرُ أنكَ كلَّ دُنياى، وَأنه ليسَ لى أحدٌ سوَاك فِى هَذِه الحَيَاة.

– لكننِى لاَ أستطيعُ رُؤيتكِ بهذِه الحيْرَة وَالقَلق، وأقفُ عَاجزًا مَكتُوف اليديْن، ليسَ بِوسْعى أن أرَى أموَاجًا عَاليةً تُعَكرُ صَفوَ شُطآنى الهَادِئة بعينيْك!! أجيبى عَلى كَلَامِى.. مَا الذِى يقلقكِ بهذَا القدْرِ الهَائل ويبعدكِ عَنىِّ؟

– لَنْ يبعِدَنى عنكَ شىءٌ مَا أبدًا يا أدهم.

لَمْ تهدأ حَالةُ أدهم بعدَ فأردفَ يقولُ:

– فلمَاذَا إذَنْ لا تُصَارحيننِى، عسـاىَ أجدُ لكِ مخرجًا ممَّا أنتِ فيهِ، أوْ يكونُ بِوُسعِى مَا أفعله منْ أجلكِ؟

– صَدِّقنى يَا أدهم ليسَ هناكَ شىءٌ مَا.

وتوقفتْ أمامَ شــجرَة كبيــرَة وقَدْ تَدَلــتْ فروعُهَا عَلى الأرض، فجلسَــتْ عندهَــا لتُحَادثَهُ، ولكنهَا لمْ تســتطعْ التحدُّثَ إليه، بلْ رَاحت تطيلُ النظرَ إليه، وكأنهَا تتأمَّلهُ بصمْتٍ، فِي حَالة وَدَاع.

- أشجَان هَلْ تُحبينني قدرَ مَا أحبكِ؟

- ليتكَ أنتَ تُحبنى قدرَ مَا أحبكَ

- لكننِــي خَائف.. فإخْفَاؤُك عَنــي مَا بكِ، يُخيفنى، يُشْعرنى بالغُرْبة.. وبأنكِ وَحيدة رغمَ وجُودِى مَعَكِ!!

أفزعتهَا أقوالهُ تلكَ، فتلفتَتْ إليه مَذعُورة.

- إياكَ وهذَا القولَ مرةً أُخرى يَا أدهم؟

أنتَ لا تعرفُ إذنْ كَمْ أحبُّكَ حَتَّى الآنَ!!

كانتِ الثقةُ والأمانُ والحبُّ هِيَ كــلُّ رأسمالهمَا فِي هَذِه الدنيَــا، ينتظرَانِ متَى يأتِى اليــومُ الموعُودُ الذِى يترقَّبَانِهِ ليجمعهُمَا.

* * *

فتحــتِ الأُمَ (ضحية) طَاولــة الكتابةَ لتخرجَ ورقةً منْ دفترِ رَسَــائلهَا، لتدوِّنَ بِهِ مَا سترسِــلُهُ لأنتينورِى

عَبْرَ –Internet– الإنترنت بالكُمبيوتر. وجمعتْ عددًا مُختلفًا مِنْ صورِ أشجَان، ورَاحت تكتبُ أحداث حياتهَا بكلِّ التفاصيلِ الممكنِ عرْضهَا، كمَا طلبَ منْها، وغمرتهَا السعادةُ وهِيَ تقلِّبُ فِي صورهَا لتختارَ منهَا أيهَا سَتُرسله إليه.

كانَ أنتينوري لاَ يُضيعُ ثانيةً واحدةً منْ وقتِه، فهوَ يجلسُ فِي معملِه فِي إيطاليا ليقضيَ معظم وقتِه بينَ أبحاثه وتجَاربه العلميّة، فهوَ يعملُ كثيرًا. وجَاءه خبرُ استمرار نجاح تجربته العلمية أشجَان وسعادةِ أمهَا بهَا ليمسحَ بهذا النجاح كلَّ تعبهِ وإجهَاده ومسيرَته البحْثيَّة.

لقدِ استطاعَ إعادة الابتسامةِ والحياةِ لامرأةٍ بعدَ طولِ يأسٍ وحرمَان، وقدْ تعوّدَ هُوَ أنْ يفعلَ المستحيلَ، بلْ لاَ يوجدُ فِي حياتهِ مَا يُدْعى بالمسْتحيل. ولذلكَ لُقِّبَ (بأبي الأطفالِ المسْتحيلينَ).

دخلتْ زوجتُه، وشريكتُهُ العلميّة، لتضعَ أطباقًا زُجاجيةً صغيرةً مُرتبة مرقّمةً– أطباقَ بترى المعْمليّ– المليئة بالبوَيْضات المُخَصّبة صِناعيًا فِي الحضَانةِ لتخْصيبهَا.

وكانَ هذَا هُوَ المستشفىَ الوحيدُ منْ نوعهِ بعدَ إغلاقِ عيادته الخاصَّة، وطرْده مِنَ الجامعَةِ لمحَاولتهِ اسْتخِدام الإنسان فى تجَاربه العلميّة وكانَ هاربًا منَ العدالةِ بعدَ خَرْقهِ للقانُونِ.

ولكنْ بمسَاعدِة زَوْجته أصرَّ عَلى عدم ترْكِ مُحَاولاَت إجرَاء تجَاربه البشريّة، حتَّى ولَوْ تَمّ رجْمهمَا لحينِ نجاحهَا.

كانَ نجاحُه يزيدُه طمعًا.. أليسَ لمطَامع الإنسَــان منْ آخر..؟ أمْ أنه كلمَا حقق مطمعًا جدَّ فى مطمع غيْره؟ وربمَا يستعدُّ أنتينورى استئنافُ قَضيته لأخْذِ تعويضٍ لما حدثَ له ســابقًا.. وَعَدم البحْث عَنه للقبض عليهِ عندما يُشاهِدُ العالمُ حَصيلة تجَاربه، وأنهّا ليستْ ضِدَّ القيم والأخلاق.

ويستطيعُ بذلكَ أنْ يَسْتعيدَ حُريتهُ وَيُلْغى الحكم عليهِ الّذى لمْ يُنَفّذ لعدم كفايةِ الأدِلّة.

ورغمَ أنه فِى قَضِيَّةٍ مُعَلّقةٍ، إلاّ أنَّ العديدَ والكثيرَ لجأُوا إليه سرًا وليسَ علاَنيةً بحثًا عَنِ الإنْجَاب والخلودِ، فَمنهم مَنْ يَرَى خلودَ نفسِــه باسْتنسَــاخه، ومنهُمْ مَنْ يعلقُ كلَّ آمَالِ وجُودِه فِى إنجَاب طفل يرثهُ ويرثُ أهلَهُ مِنْ بعْده.

كثرتْ أسئلةُ أشجَان لأمهَا ..

وَلأولِ مـرةٍ تقتحمُ أشـجانُ خَلـوةَ أبيهَـا وأمها وهمَا يتضاحـكَانِ وحدهمَا فِى حديقةِ البيتِ الصَّغيرةِ فسـمعَتْ أقوالَ أمهَا:

– لكنَّ أنتينورى سعيدٌ جدًّا، إنَّهُ يريدُ رؤيةَ أشجَان.

سألتهمَا فورَ قربهَا المُفَاجِئ لهمَا:

– مَنِ الذِى يريدُ رُؤْيتِى يَا أمى؟

بتعجُّـب وَاضْطِراب:

– رُؤيتُكِ..!

– أجلْ.. أنتينورِى..!! أليسَ كذلكَ؟!

وأنتَ أيضًا تَعرفهُ يَا أبِى!!

كانَ (سرحـان) شَـارِدَ الذِّهْنِ ليس لهُ قُدرةُ الأُم فِى تحمُّل أسئلتهَا الَّتِى لاَ تنتهِى، فأبعدَ مقعدَهُ عَنِ الطَّاولة. وجذب الصحيفةَ اليوميْة بيديْه. واستأذنَ زوجَته وتركَهُمَا.

كانتْ ابنةٌ غَريبة بالنسـبَة لهُّ. فهوَ لمْ يشـعرْ المحظة واحدةٍ ببنُوّتها، وَشَـردتْ أشـجَان. حتَّـى أنتَ تعرفُ أنتينـورِى، لابدَّ أنَّ دنيَا تعرفُـهُ أيضًا. ليسَ هناكَ مجالٌ

للشـــكّ الآنَ. بالفعل هناكَ سِرٌّ ولغزٌ لابدَّ مِنْ كشفِهِ وحَلِّه.
فعَاودَت تسألُ أمهَا: - مَنْ هُوَ أنتينورى هَذَا يَا أُمّى؟
لماذَا تخفيَان عَنىّ سرَّ هذَا الرجُل الغَامِض وَعلاقتَه بكُمْ؟
وَبســرعةٍ اَسْـتعادَت الأمُّ هدوءَهَــا وابتلعــت تَوَتُّرهَــا واضطرَابهَا وَقَالت:
- هُــوَ الطبيبُ يَا حَبيبتِى الَّــذِى أنقذكِ وأنقذنِى أثناءَ وِلَادتكِ.. ألمْ أقلْ لكِ إننى وَلدتكِ هناكَ فِى إيطاليَا.. أنتِ عندئذٍ لمْ تسأليِنى لماذا؟
كانت أشجان تتفحصُ أمهَا ونظَراتها بحثًا عَنْ خَائنةِ الأعيــنِ ومَا تُخفيهِ الصُّدور، تُحدثهَــا وكأنهَا تبحثُ عَن الســرِّ الغامِض الَّذى تُخفيهِ فــى كلمَاتهَا. ونظراتهَا التِى تحاولُ إخفاءَهَا وهىَ تخاطبهَا. فسألتْهَا أشجَانُ:
- لمــاذا يَا أمى؟ لماذَا تمَّت ولادتى فِى إيطاليا؟ أليسَ فِــى مصرَ بِأكملهَا أطبَاءُ وِلَادة مَاهرونَ لإنقاذى ســوَى فِى إيطاليا؟ وَلماذا إيطاليا وليست إنجلترَا أو أمريكَا أو فرنسَا؟ ولمــاذَا دنيَا أيضًا عَلى وجْـــه التحديدِ، وَمَا علاقتكِ بهَا، بلْ مَا علاقتهَا الحَقيقيةُ بِى؟

انهالتْ أسـئلتهَا كالسَّـيلِ الجَـارفِ مُحَطِّمَة بِهِ كلَّ الحواجزِ والقيـودِ الواحِد تْلوَ الآخر.. بلاَ توقُّفٍ أَوْ هُدنةٍ أَوْ رأفةٍ فِى طَريقةِ حَديثهَا. كانتْ لهْجتهَا شَديدَة.. قَاسِيَةً، مليئـةً كلهَا بالاتهَامَات، وكأنَّ كلَّ مُهِمَّتهَا انحَصرت فِى البحثِ عَنْ دليلٍ لإدانتهَا ولإثباتِ الاتهَام الذِى يملؤُهَا.

– وَإذَا كنَّا فِى إنجلترَا لتتسَـاءلت لمَاذا ليستْ إيطاليا؟

كانَ هـذَا الطبيبُ أنتينورى ينقذُ الكثيريـنَ مِنْ أصحاب العللِ المسْتَعْصيةِ للعقْم والإنجَاب، وكثيرًا مَا كانتْ تترددُ أخبارُهُ فِى الصحفِ والمجَلاتِ. هَذَا كلُّ مَا فِى الأَمْر.

ورغَـمَ أنَّ هذِه الإجَابةِ غيرِ مُقْنعةِ لهَا، إلاَّ أنهَا منعتهَا من تكرَار هذَا السُّؤَال.. ثُمَّ لاحقتهَا بسؤَالٍ آخرَ وكأنهَا فِى تحقيقِ رَسْمى: – ودنيا؟!

قاطعتهَا بِحِدَّةٍ:

– مَاذا بهَا دنيَا؟

– لماذَا دنيا عَلىَ وجْهِ التَّحديدِ؟

– لأنهَـا كانتِ المُرْضِعةُ الوحيـدةُ التى عثرنَا عليهَا، واختيارهَـا كانَ نتيجةَ صحّةِ التحَاليـلِ والفحوصِ التى

أُجريتْ عليهَا وطلبنَا منهَا الإقامةَ. فرحّبتْ حيثُ لاَ أُسرةَ لَهَا.. ولاَ مُعِين وَلاَ رَفِيق.. فماذَا فِي الأمرِ مِنْ غَرَابة؟

- فِي الأمر..

قاطعتهَا الأم بقَسْوةٍ:

-أشجَان كُفّي عَنْ أسْئلتكِ تلكَ.. أَمْ أنه تَحقيقٌ وَلابدّ مِنَ اسْتجْوَابِي، أَنَا لا أفهمُ كيفَ تشغلينَ بالكِ وفكركِ بمثل هذِه الأمورِ التافهَةِ وتتركينَ دروسَكِ، عُودِي إِلَى غُرْفتكِ مِنْ فَضْلكِ.

مامِنْ حديثٍ بينهمَا إلاَّ وَازْدادت الأُمُّ خوفًا وازْدادت أشجَان بُعدًا، واتهَامًا، وإحسَاسًا بأنهَا ليسَتْ أمها، وَلا يمكنُ أنْ تكونَ أمًّا لهَا، بأىِّ حَالٍ مِنَ الأحوَال!! وَالذِى لا شكَّ فيهِ هُوَ أنَّ دنيا هِيَ أمهَا عَلَى وجْهِ التحديدِ، ولا ريبَ فِي ذلكَ. فَلابدَّ مِنْ وجُودِ جَريمَةٍ مَا.. يُخْفيانهَا،يتستَّرَانِ عليْهَا.

* * *

تحرّكت تجرى خَلفه، فهَى دَقيقة فِى حجمِهَا، رَشيقةُ القَوَام، جَرت أمامهُ تُغريه باللّحاقِ بِهَا،وَتوالتْ

ضحكاتُهَا، فســمِع زقزقةَ عُصْفورة تغــردُ، وهو يلاحقهَا فيمسِكُ بِهَا قائلًا:

– إلــى مَتَــى تُخفينَ عَليَّ مَا تسـرِّينَهُ؟ ألا تعرفينَ أنه بوسْعِى أنْ أفعلَ مِنْ أَجْلكَ أىَّ شىءٍ؟

ابتسمَت بعُذوبةٍ ونعُومةٍ وَهَمسَتْ تَسْأله بِخفّةٍ ودَلاَلٍ:

– أَىَّ شىءٍ.. أىَّ شىءٍ!!

– ألديكِ شكٌ فِى ذَلكَ؟

– حَتى ولوْ كَانَ..

قاطعهَا:

– حتَّى لوْ كانَ لبنُ العُصفورِ.. سآتيكِ بِهِ إنْ شِئْت؟

– وَهلْ للعُصْفور مِنْ لبنٍ؟

– طبعًا يَا حَبيبتى لِلعُصْفورِ لبنٌ.

ضَحِكَتْ:

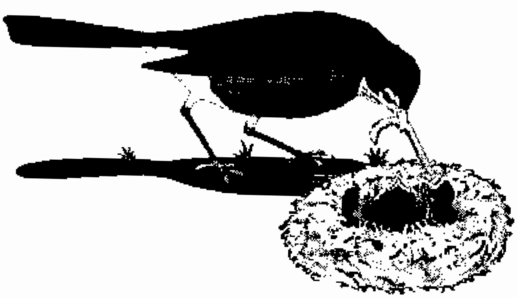
– كَمْ أنتَ طَرِيفٌ يَا أدهم وأنتَ تتفكَّهُ هكَذَا.

وَبسُخريةٍ أرْدفت تقولُ:

– وَللعصفورِ وليسَ للعُصْفورةِ.. أليسَ كذلكَ..

أىْ للذكَر وليسَ للأنثَى؟

وَرَنَّتْ ضحْكتهَا العَاليَةُ لتمْلأ أصْداءَ المكَانِ منْ حولهمَا.
بثقةٍ قالَ أدهم: قُلْتُ لكِ إننِي لَا أتفَكَّهُ.
اعْتدلَت فِي جلستهَا وَهيَ تسألهُ بِجديَّةٍ:
- أتجِدُّ فيمَا تقولُ..؟
- منذُ مَتَى أقُولُ هَزْلًا؟؟
فنظَرتْ إليهِ بتعَجُّبٍ مُتَسَائلة:
- لا تغضبْ هَكَذا.. فقلْ لِي إذَنْ مَا هُو لبنُ العُصْفور؟
أردفَ أدهم يشرحُ لهَا وَكلُّهُ ثقةٌ بِمَعْلومَاته التِى راح يسقيهَا إياهَا كُلَّ يوم، فكانتْ تتلَقَّى منهُ وتشربُ مِنْ كأسِ الحبِّ والمعْرِفة فِي آنٍ واحد.
- لبنُ العصفورِ لا يختلفُ فِي جوْهرة وَترْكيبته عَنْ لبنِ أيِّ حيوَانٍ منَ الحيَوانَاتِ الثَّديية، فهوَ يَحْتوى عَلَى المادَّة



البروتينيَّة التِي تسـمَّى (كازينوجين) وَدُهنٍ وَسُكرِ اللَّاكتوزِ وهِيَ نفسُ مُكونَاتِ اللَّبنِ الطَّبيعِي المعْروفِ لنَا جمِيعًا..

إلاَّ أَنَّ لبـَن العصفـورِ أو الطيورِ بصفـةٍ عَامة، يختلفُ عَـنْ لبنِ الحيوانَاتِ الثديِيّةِ الأُخْـرى فِي بعضِ الخواصِّ الطَّبيعيَّةِ لأنهُ ليسَ سَائِلًا..

لكنّـهُ عَلـىَ هيئةِ فتاتٍ أبيـضَ اللَّونِ هَشٍّ.. سَـرِيعُ التكسُّـر.. أشبهُ مَا يكونُ بفتَاتِ الجبنِ الأَبيضِ، وَللعلـمِ يَـا حَبيبتِي فإنَّ لبنَ الطائرِ تفـرزُهُ حُوَيصَلة الأنثَى وَالذكرُ عَلىَ السَّـوَاء.. ولذلكَ يشـتركُ الذكَرُ والأنثَى -معًا- فِي إطعـام أفرَاخهمَا الصَّغيـرة، وعندَما تضـعُ العصفورةُ أو العُصفور منقارهَا فِي فِم أفراخهَا الصِّغارِ يرتعِشَان..

إنهمَـا فِـي الواقِـع يُطْعمَانهـم لبنًا حقيقيًّـا كانَ فِي حُوَيْصلتهِمَا.. وَمَا يَقومَان بهِ هُوَ اجترَارُه وَاسْـتِرْجَاعُه مِنْ حُوَيْصلتهما إلى فم صغارهمَا، ومنْ هنَا يَا حبيبتِي فإنَّ لبنَ العصفـورِ حَقِيقة عِلميّة، وليسَ خُرَافة، كَمَا يظنُّ أوَ يعتقدُ البعضُ مِثلكِ يا حَبيبتِي.

قالتْ أشجَانِ والحبُّ والإعجابُ يملؤُهَا:

كَـمْ يعجبنِى فيِـكَ ثقتكَ تلكَ يـا أدهم وأنـتَ تُدْلي بمعْلُوماتكَ تلكَ الطَّريفَةَ.. الشَّـيقة والحقيقيةَ أيضًا. فرغمَ أننَا فِى عُمْرٍ وَاحِدٍ إلاَّ أننِى أشـعرُ بكبرِكَ عَنِّى، ووعيكَ، لكِنْ مِـنْ أينَ أتيْتَ بِكلِّ هذِه الجَاذبيَّـة؟ فثقافَتُكَ تُضْفى عليكَ قوةً وتزيدكَ روعَةً فوقَ قُوتكَ.

– القرَاءةُ يَا أشجَان.. فأنَا أحبُّ القراءةَ جِدًّا.

– قَدْرَ حُبِّى لَكَ؟

– حُبِّى لكِ لاَ يُعَادلهُ شىءٌ فِى الوُجُود.

– أنتَ تحبُّ كُلَّ شـىءٍ جميلٍ يَا أدهم، لمْ أرَ شـيئًا جميـلاً إلا ووجدتكَ تُحبُّه. فأنتَ تحـبُّ كلَّ مَا يُحَبُّ.. وتبْغضُ كلَّ مَا يُوجَبُ كَرَاهَته وَبُغْضُه.

– كمْ هِىَ جَميلة تعبِيرَاتك تلكَ يَا حَبيبتِى..

كَمْ أنتِ رَقيقة.. أنتِ فَرَاشـة.. فرَاشـتى أنا وحْدِى.. فراشـتِى الَّتِى ستظَلُّ تحلِّقُ فِى سَـمَائِى أنَا وحْدِى، إلَى آخِرِ يوم فِى عُمرِى.

رددتُ بتفكُّر وتأمُّلٍ:

– فَرَاشة!!

– مَاذا؟ ألمْ يُعجبكِ التَّشبيه؟

– كلاً.. يَا حَبيبِي.. كيْفَ لاَ يُعجبنِي شيءٌ تقُولُه أنتَ.. فَأَنَا يُعجبنِي كلُّ مَا تقولُه وكلُّ مَا تَفْعلُه وكلُّ ماَ يُعْجبكَ.

– فلماذَا شَردتِ؟

– أفكرَ فِي اسـتِعارَةِ هَذِه التَّسـميةِ منكَ لأطلقهَا عَلى رَقْصتِي فِي حفلةِ الباليةِ القادمَة بالمدرسَة.. سَأَطلقُ عليهَا رقصَة الفراشَة.. مَا رَأْيكَ؟

– جميلٌ هُوَ ذاكَ. فكلُّ مَا تختَارينَه جميلٌ لِأنه يصدُر منكِ دونَ الأُخرياتِ يَا أشجَان.

* * *

وَجاءت الحفلةُ المدرسـيّةُ لمدرسةِ (الحرية)، وكانتْ أشـجَان عَرُوس الحفلِ رَاقصَة البَاليــة.. كالمعتَادِ كانتِ المشَـاجرَةُ بينَ أمهَـا وَدنيا (مرضعتهَا كمَـا عَلمْت) التِي أسْـفرَت عنْ حرْمَان دنيا مِنْ حضورِ الحَفْل، رغمَ أنَّ الأمَّ وَعَدت صَغيرتهَا بحضورِ دنيا مَعَهم، إلاَّ أنهَا حَالت دونَ ذلكَ سِرًا وليسَ عَلانية. وَكالمعْتادِ أخفتْ دنيا هَذا الحوَار عَنْ أشـجان، حتىَ لا تعكِّرَ صَفْوَهَـا، وفرحتَهَا بالحفلِ.

وخرَجَتْ أشجانُ وســطَ الفتياتِ فِى ردَاء الفراشَةِ لِتَرْقُصَ (رقصَةَ الفراشَــة) كانت لاَ تتحركُ ولا تجرِى بلْ تبدُو لكَ وكأنهَا تطيرُ كالفَرَاشَــة، لمْ تكنْ أشجان هِىَ وحدهَـا التِى تدوُر رَاقصَة، بلْ كانتْ نظراتهَا أيضًا هِىَ الأُخْرى تدورُ، تتحركَ يمينًا وشِمالاً. بحْثًا عَنْ دنيا وسَط أسرتهاَ فيملؤها الحزنُ لعدَم رُؤيتَها.

كانتْ تدورُ كالعرائِس المتحرِّكةِ.. وَالأزمَات تدورُ برأسـهَا، وأحـداثُ حياتهَا تحَلـقُ قبالتهَا. أخـذتْ تحلِّقُ، ترقصُ، بينمَـا عقلهَـا خَائر يسـتعيدُ حالةَ دنيا الحَزينة، وحالــةَ أمهَــا الغَامِضَة والسِّر الغامِض، بَل الجريمَة المتوقعَة والتِى يتستَّرَان عليهَا فيتحملُ كلٌ منهمَا الآخر، فهِىَ كلُّ مَا يَجْمعهمَا، فلمْ يَرْبط بينهما إلا شيءٌ وَاحدٌ.. هُوَ حُبُّهَا وإسْعَادهَا.



تمرُّ الذكرياتُ البعيـدةُ منذُ طفولتهَا، وكيفَ تقاومُ أمهَا وهَـي تجذبهَا مِنْ معْصمهَا لتخرجَهَا مِـنْ غُرفةِ دنيا أثناءَ مرضهَا وكيفَ تعاودهَا سـرًا، كيف تنهرهَا دائمًا وتسـيءُ مُعَاملتهَا، وتكثرُ مِنْ إهَانتهَا إلاَّ إنهَا تتكلفُ المودَّةَ بمجَّرد رُؤيتها مُدَّعيةً الرحمَةَ.. إلاَّ أنَّ أشجان كانَ لا يفوتهَا ذلكَ، ودخولهَا عَلىَ أمهَا بغتةً لترَاهَا تغلقُ، وتُوصدُ دونهَا البابَ بأقصَى ما تسـتَطيعُ، لتحـولَ دونَ رؤيتهَا ملفًّا مُعينًا، وَقدْ أخفَتْ فِيه شـيئًا مَا. بالتأكيد فَفي الملَفِّ شيءٌ يتعلَّقُ بهَا وبهمَا أوْ سـرّهمَا ذَلكَ. يومهَا فلتـتْ صُورتهَا ووقفَتْ دونَ مُلاَحظَتها تلكَ. إذْ لمَاذَا اضْطَربَتْ لرُؤْيتهَا؟ لمَاذَا أخفَتْ مَا تَحملهُ فِي الدُّرْج..؟ لمَاذا طوَت الورقةَ التِي كانتْ تنشـرهَا بينَ كَفيهَـا لتقرأهَا؟ لمَاذا تعيشُ دنيا وَحِيدةً بلاَ أهْلٍ؟ وَلاَ أقاربَ؟ ولماذَا تشعرُ أشجَان بحبهَا أكثر مِنْ أمهَا؟ بلْ وتشعرُ كثيرًا أنهَا أيضًا تبادلهَا هذَا الشعورَ لماذَا؟.. لمَاذا؟..

وَامتلأَت عيناهَا بالسُّحب القَاتمَـةِ.. فلمحَت أدهَمَ جَالسا مُبتسـمًا.. فابتَلعَت دُموعَهَا وَبَادلته الابتسامَ لتنْسَى كلَّ مَا فكَـرتْ فِيه. كانَ أدهمَ هُوَ الشـيءُ الوحيدُ فِي هذَا الوجودِ

الذِى يُخففُ عنهَا.. مجردُ رُؤيته تزيلُ همومَها.. دونَ عناءٍ أوْ مشقةٍ فِى ذَلك. يكفِى أنْ تَرَاه.. قَبالتهَا، بجانبهَا. لتتنسَى كلَّ شيءٍ. وكلَّ مَا يُعَذبها.. فنظرَاته تحيلُ عذَابهَا وآلامهَا لجنَّةٍ وَارفَةِ الظِّلال.. تغسلُ همومَهَا.. ترطِّبُ حياتهَا. كانَ هو الـدفءُ الوحيدُ الذِى يلتفُّ في عَبَاءةٍ فيهَا ابتسامتُه ليقيهَا بردَ الأحدَاثِ الغامضةِ وقسْوتهَا. وانتظرهَا أدهم، حَاملًا باقةً منَ الورودِ الجميلةِ.. ليهنئهَا.

قالتْ لهَا دُنيا:

- بالطبعِ كنتِ عَرُوس الحَفْل.

- كنت فرَاشـة يا دنيا وكَمْ كانَ كلُّ شيءٍ جميلًا إلاَّ شيءٌ وَاحِد.

- مَا هَو يَا حَبيبتى؟

- وجودكِ مَعِى.. لماذَا دائمًا ينقُصُنِى وُجُودكِ؟ فِى أهمِّ المناسباتِ وأجمَل الأشياءِ تَختَلقينَ الأعْذارَ..!! هلْ حقًّا أنتِ مريضَة؟ وتشعرينَ بشيءٍ مَا، جعلكِ لا تحضرينَ حَفْلتِى؟ فَلَا تشاركينِى نَجَاحى.

اغرورقَتْ عيناهَا وهىَ تُجيبهَا بصوتٍ تقطعُة العبراتُ:

- أنـــا دائمًا معــكِ يا حبيبتِـــى بقلبِـــى وَعقْلِي.. ألاَ يكفيكِ هَذَا؟

قالتْ أشجان بحزنٍ :

- إلـــى متَى نظلُّ هَكَــذاَ. إنِّى حَائرة بينكِ وبينَ أُمىِّ؟ لمـــاذَا لا تتَّفِقَانِ وتعقــدانِ هدنةً مِنْ أَجْلـــى أناَ؟ مَا الذِى يجعلكمَــا دائمًا عَلى غِيرِ وفَاقٍ؟ ولمَاذا تغارُ منكِ كلَّ هذِه الغيرَة؟ إلىَ مَتَى يســتمرُّ هذَا الوضـــعُ الغريبُ بيننَا؟ إنَّكِ تُعطْيننى كلَّ شـــىءٍ وَلاَ تَأخُذِينَ أىَّ شيء.. حتىَّ وجودكِ بينَ الناسِ تُحْرمينَ مِنْهُ..!! لِمَاذاَ؟ مَا الذِى فَعَلتهِ وَاقترَفْتِهِ لتَجْنى كلَّ هَذَا؟

- كلُّ هذَا لاَ يُؤْلمنِي.

- لكنهُ يُؤْلمنِى أناَ.. فأَنا بحاجَةٍ لوجُودُكِ مَعِي.. لكنْ..! لمَاذا تَفعلُ أمىَّ كلَّ هَذَا..؟

لماذَا تَحُولُ دونَ وجودكِ المســتمرِّ مَعِـى لمَاذَا؟ لماذا لاَ تُريحيننى وَتقُولينَ لي الســرَّ الغامِــضَ الذِى يَجْمعكمَا وَيضْطركمَا للعيشِ هَكَذَا؟

* * *

القرد كوكى وشجرة النيم

لَمْ يَعْثُرَا عَلى القِرْد «كُوكــيِ» فَرَاحَا يبحثان عنه ، فِى كلِّ مــكانٍ فِي البيتِ ، وَفِى الحديقــةِ المحيطةِ بالبيتِ ، إلَّا أنهمَا فشلاَ فِي العثورِ عَليه.

وَإذا بكُوكِى الصَّغير فِى الفيلَّا المجَاورة يتســلَّلُ عــبرَ نافــذةِ المطبخِ متســلقاً «المَواسير الخَلْفية» لِخَـازِنِ المياهِ.. لينقلَ عبرهَــا البطاطسَ والطماطمَ ، الواحِدَة تلْوَ الأخرَى ، فيمسِكُ واحدةً بيدٍ يَحتضنهَا ، والأخرَى يَتَســلَّقُ بهَــا عــبرَ «المواســير» وَالنافذةِ ، ثــم يقفزُ عبرَ الأشــجارِ ، ثمَّ يتســلَّقُ لمطبــخ البيتِ ليضعَهَا عَلىَ مِنْضدَةِ تجهيزِ الطعامِ فِى مطبخِ الأسْرَة.



دَخلتْ مُرَبيةُ البيتِ بغتةً، فوجَدت كُوكي قردَ الجيرانِ يســرقُ خُضْرَاواتهمْ وينقلُهَا لَهُم، فأمسَــكتهُ المربيةُ فراحَ يصرخُ صرخَاتٍ مُتَتَالية.

اندفعتِ الأم تثورُ غاضبةً لهَذهِ التصرُّفَات.

لمْ تُعِرْ أشــجَانُ أىَّ اهتمام لهذهِ الثَّـوْرة، حيثُ إنه لَا دَاعى لكلِّ هَذه الثَّورة وَالغَضبَ لما يَفْعلُهُ القردُ، وَجَلســت مَعَ كُوكى تُلَاعبه وَتلاطِفُــه فهِىَ رَقيقةٌ، وَديعَة، تخاطِبُ الأزهَــار، تصــادقُ الطيورَ، تحدِّثُ المطَر.. كانتْ شَــديدَة الإعجابِ والحبِّ بِهِ.. فهوَ يُمثلُ لهَا اللعبةَ المثيرةَ، الحيّةَ، التى لمْ تبادلهَا الملاطفةَ واللَّعبَ فقطْ، بلْ والحُبَّ أيضًا.

فتحَت أشــجَان الإنترنت بحثًا عَــنْ أىِّ معلومَاتٍ عَنْ أنتينورى الإيطَالى وَسِيرته الذَّاتيةِ.. وعندمَا وَصَلت إليهِ قرأتْ: «يبلغُ مِنَ العمرِ الثَّامنةَ بعدَ الخمســينَ. مُتزوجٌ ويعملُ معَ زوجتهِ فِى مُسْتشفى الاستنسَاخ والولَادة، يلقبُ «بأبو الأطفال المســتحيلــينَ». يعالِجُ الحالات المُسْــتعصيةِ للعقْم.. وذلكَ باســتِخْدام وَسَائلهُ المنفردةُ فِى علاجِ العقمِ، وسِنَّ اليأسِ وغيرهَا مِنَ الحالاتِ المُسْتعصِيَةِ».

– لهُ مُحَاولاتٌ فِي اسْتنسَــاخِ البشَرِ، تسَببَتْ فى تقديمِهِ للمحَاكمةِ عِدّة مرّاتٍ، وأغلقَ الـمُسْتشْفيين الخاصَّيْن به، بلْ وتمَّ طرْده مِنَ الجامعةِ الإيطاليةِ (سابينسا) وتعنِى الـمعْرفَة.

شَعَرت أشجَان بالخذْلانِ أمامَ هَذهِ المعلومَاتِ التِي لمْ يكذبْ كلٌ مِــنْ وَالديْهَا فِــى قولهَا.. فلمْ يلجَأْ إليْــهِ عَبَثًا ولهوًا.. واستعَادت ثقتهَا مِنْ جديدٍ بأمهَا.. وَصَدقت أقوالُهَا بعدَ أنْ ثبتَ عدمَ صحّةِ اتهامهَا وَإدانتهَا وَهواجسهَا الشيْطانيّة.

* * *

ثُمَّ جلسَت أسفلَ الشجرَةِ التِي شَهدتْ عهودَهُمَا وأحَاديثَهُمَا وَحبهُمَا محَاطِينَ بالورودِ منْ كلِّ مكانٍ.. قائلةً:

– لمَاذَا يا أدهم عندمَا نصلُ ونجلسُ عندَ هذِه الشَّــجرةِ أشــعرُ بالراحَةِ لدرجَة أننِّ أشــعرُ بأنَّ كلَّ شئ هُنَا نَقِىٌ، جميــلٌ، بديعٌ.. حتَّى الهــواءَ هُنَا غَيْــر مُلوَّثٍ، وكأنَّ كلَّ شَــيءٍ مريح وهادئ وجميــلٍ؟ دَاعَبَهَا قائلاً:

– أتعرفينَ لمَاذاَ.



– طبعًا أعرفُ.

– أشكُّ فِي ذلكَ.

قالتْ بثقَةٍ: لكنْ ليسَ لديَّ شـكٌّ فِي أَنَّ حبكَ هُوَ الذى يُعطينِى هذَا الإحساسَ بالرَّاحةِ والهدُوءِ.

– ألمْ أقلْ لكِ إننِى أشُكُّ فِي معرفَتِكِ سببَ تلكَ الراحةِ.

بغضَبٍ تقولُ:

– ألديكَ سَببٌ آخَر غيرَ ذلكَ؟

– بالطبـع لديَّ.. فهنَا يَا حبيبتِي.. وأشـارَ بِيَده عَلى الشُّـجيْرَاتِ المحيطَةِ بالحديقَةِ.. شُـجيرَات «النيم» هَذهِ الشـجيرَات هِيَ التِي تعطيكِ هَذا الهـدُوء وتلكَ الراحَة. لأنهَـا تمتـصُّ أولَ أكسـيد الكربُون والرصَاص وأكسـيد الهيدروجين مِنَ الهوَاء، بالإضافةِ إلى إنهَا تطردَ الحشرَاتَ الضَّارةَ مِثلَ الذبَابِ، والبعُوض وتقَضِى عَليهمَا، وتستطيعُ امتصاصُ الغازَات الضَّارة مِنْ مَسَـافةٍ تتراوحُ بينَ ٣,٥ إلى ٥ أمتار، وتطردَ الحشرَاتِ عَلى مَسافةٍ تبلغ ٢٠ مترًا. فهىَ تحاربُ التلـوُّثَ. قَالت وهىَ تحاولُ أنْ تمكرَ بِهِ مُتَظَاهرة بالثورةِ والغضَبِ: – وَأسفَاه..!! لقدْ ظننتُ حُبكِ هُوَ الَّذِى

يُعْطينِي هَذهِ الراحَة، وليسَت شُجَيْرات النَّيْم.

فأخرجَ حافظةَ أوراقٍ مِنْ حقيبتهِ المدرسيَّةِ وقَالَ لهَا وهو يتكئُ بظهرِهِ عَلى جِذْعِ الشَّجَرة:

– اسمَعِي يَا حبيبتي هَذِه القَصِيدَة.

وراحَ أدهم يردِّدُ عليهَا بعضَ أبياتهِ الرَّقيقة..

كانَ يتحدَّثُ.. فتمسكُ الدنيَا كلُّهَا مِنْ حولهَا عَنِ الكَلام، وتغمضُ عينيهَا لأقصَى مَا تستطيعُ.. وكأنهَا فِي سُباتٍ عَميقٍ، لحلم جَميلٍ، لا تريدُ أنْ يُوقظهَا مِنْه أحَدٌ.

وَهكَذا.. كَانتِ الأيامُ تجْرِى بِسُرعةٍ.. كالأمواج.. اليومُ يغالبهُ آخرُ فلاَ يشعرَانِ بالزَّمنِ.. لكنْ بقدرِ مَا نسعدُ فِي الحياةِ كانَ لابدَّ مِنْ دَفْعِ ضَريبةِ هَذهِ السَّعادة، وَكأنه دَيْن، ولابدَّ مِنْ تَسْديده لَهَا فنحنُ عَلى الأرضِ.. مَازلنَا فوقَ الأرضِ.. وَلاَ توجدُ جَنَّة فوقَ هذهِ الأرضِ.. قَدْ نعيشُ بعضًا مِنَ الوقتِ فِي سَعَادة.. وَلكنْ..!! سرعَانَ مَا تعودُ الدنيَا، كعادتِهَا.. فَهِيَ دُنيا وأرضٌ وَحيَاةٌ.. وَكَبَدٌ.. وَخُلق الإنسانُ فيهَا ليكابِدَ، وَيصارعَ منْ أَجْل الحيَاة.

* * *

كبرتْ أشجَان.. وَكَبُرَ معهَا أدهم.. وَكبر الحبُّ بينهمَا، وكبر بينهمَا الحلـُم الجَميلُ، ولَمْ يكبرْ هَذا الحلمُ الصَّغير معهمَا وَحَسْـب.. وإنما كَبرت معهُ مُلامحُهَا، أعضاؤهَا، حَتىّ بدتْ تخَجَلُ مِنْ شكلهَا.

فجأةً..! أصبحَتْ تنمُو نمـوًّا غيرَ طَبيعى، ولا معهودَ مِنْ قبلُ، حتَّى باتتْ تختفي عَنِ العيونِ، وتتوارَى خَجَلًا، وحياءً مِنْ ضَخَامتها. واختفَتْ عَنِ العُيُونِ.

الملابسُ..! لا تستطيعُ استعمَالهَا.. فقَدْ ضَاقَتْ عليهَا.

الأَحْذيـةُ..! صَغُرت عليهَا، وكانـتْ حيَاكةُ الملابسِ الجديدة تجهدهَـا.. لقدْ أصبحَت كلَّ شـهرٍ تقريبًا تغَيِّرُ مَلابسها. وعندمَا بلغَ وَزْنُهَا خمسَة وتسعينَ كيلوجرامًا بدأتْ تطَيلُ الوقوفَ أمامَ المرْآة. لقد تبدلَت مَلامحُهَا..!!

الجميعُ يتهمونهَا بكثـرةِ الأكلِ.. ولم تعدْ بقادرةٍ عَلى الرقصِ فِي حَفَلات المدرسَةِ.. لَمْ تستَطِع الجَرْى.

أصبحَـت ثقِيلة..! وَرَغم ثقلهَا هَـذَا.. إلاَّ إنهَا كانتْ رَقيقة، هَادِئَة، وَديعَة. أصْبحَت بَدِينَة..! لكنهَا.. كانتْ تعرفُ إلى درجَة الإجادةِ كيفَ تخفِى بَدَانتهَا البارِزَة.. بلْ

تعــرفُ بمهارتهَا فِى اختيَارِ ثيابهَا، كيفَ تجعلُ منْ هذِه البدانَةِ شيئًا فَاتِنًا، تحسدَهَا عَليهِ أترابُهَا.

ورغمَ بدانتهَا تِلكَ، إلاَّ إنَّ وجههَا احتفظ بتلكَ النَّضارة والدعَة اللتيْن تَحتكرهمَا وجوهُ العذَارَى وَالأطفالُ؛ وذلكَ لعدمِ إســرَافها فِى العبَثِ باستخْدام أدوَاتِ التجميلِ الحَدِيثة، كَمَا تُسْرِفُ فِى ذلكَ أترابُهَا.. فَظلّت رغمَ ضخامتهَا تحملُ وجهَ طفلــةٍ بريئةٍ رَقيقةِ الملاَمح. لكنهَــا بدأتْ تبتعدُ عن زَميلاتهَا اللاَّتي كثيرًا مَا كنَّ يتضاحَكْنَ ويســخرْنَ منهَا. إنسانٌ واحدٌ. لَمْ تتغيرْ مُعَاملته لهَا.. لَمْ يسألهَا عَنْ أسبابِ تلكَ السِّــمْنة.. وَلاَ حتىَّ مُجرد التلميحِ بِأنهَا سَمِنت. كانَ يخافُ عَلى مشاعرهَا أكثر ممَّا يخافُ عَلىَ نفسِه. الجميعُ يتغامزُونَ، يتهامسُونَ، يتساءلونَ عمَّا أَصَابها، فِى شهورٍ معــدودةٍ بلغَ وزنُهَا وَحجمهَا هذَا القدرَ الهائلَ مِنَ الوزنِ.. كانَ شيئًا غريبًا غَير مألوفٍ.

جلسَ معهَا أدهم كعَادته تحتَ الشجرةِ الكبيرةِ الضخمةِ التِى تشهد حبهما، وتظلهمَا بفروعهَا.

– أتسمعينَ يا حبيبتى قَصِيدة أبى القاسم الشابى؟

تأملتهُ أشجَان..!

لماذَا يسألها الجميعُ، ويقتحمونها، ويجرحونهَا وهو يبدُو غيرَ مُكترثٍ ببدانتهَا- سمْنتهَا- وَتغيُّرهَا وتحوُّلهَا، ومشكلتهَا. ربمَا كانَ مُتعمدًا تجاهُلَ مَا حلّ بهَا، فمضَى يقولُ بِحماسٍ شديدٍ، قَصيدةَ إرَادة الحَيَاة:

إِذَا الشَّعْبُ يومًا أَرَادَ الحَيَاةَ
فَلاَبدَّ أَنْ يَسْتجِيبَ القَدَر.
وَلاَبدَّ لِلَّيْلِ أَنْ يَنْجَلِي
وَلاُبدَّ لِلْقَيْدِ أنْ يَنْكَسِر.
وَمَنْ لَمْ يُعَانقْهُ شَوْقُ الحَيَاةِ
تبَخَّرَ فِي جَوِّهَا، وَاندَثر.
إذَا مَا طَمَحْتُ إلِي غَايَةٍ
رَكبْتُ المُنى، وَنَسيتُ الحَذر

لَمْ تعَلق أشجَانٍ عَلَى مَا قَاله مِنْ أشعَار.. وكيفَ تعلقُ عَلى كلِمَاته وهِيَ لَمْ تسمعْهَا بَعْد.. فقدْ كَانتْ شَاحِبةً وَاجِمةً مِنْ فرْطِ تجَاهلِهِ لهَا. تلعْثمتْ وَهِيَ تَسْألهُ:

– أدهم لِماذَا تتجَاهلنِي؟ ألاَ يهمُّكَ أمري؟

– أنا..! أنا يَا أشجان أتجَاهلك؟ كيفَ تفكرِينَ هَكَذا؟ كيفَ أهونُ عليكِ فَتَظْلمينَني هَذَا الظلمَ البيِّنَ؟

– أدهم..! ألاَ تَرى أنَّ هناكَ تغييرًا قَدْ حدثَ لِي؟ أليسَ هناكَ مَا يُلفتُ وَلفتَ نظرَكَ وبصرَكَ بالفعْلِ لِمَا حَدثَ لِي؟!

– أشـجَان.. أنَا أُحبكِ أنـتِ طَوِيلة كنـتِ أمْ قَصِيرة. سَمينـة أَوْ نَحِيفة، حُلوة أو غيرُ ذلكَ، فأنا أحبكِ أنتِ ولنْ أحبَّ سِوَاكِ وأراكِ جَميلة.. رَقيقة دائمًا. وَفِي كلِّ الأحوالِ، والأوضَاع، والأعمارِ.. أحبكِ فعينَايَ لاَ تبصرَانِ سِوَاكِ.

– لكننِي يا أدهم أشعرُ بأننِي مَريضَة.. فأنَا خَائفة، ليسَ مَا بِي هو السِّـمْنة.. لكنَّـه، تضخُّم. إننِي أخافُ – الآنَ – النظرَ فِي المرْآة.

وكلَّ يـوم تُجْرَى عَلىّ التحَاليلُ والفحوصُ والاختبَاراتُ وَأرى الدهشَةَ، والتعجُّبَ فِي نظراتِ الأطباءِ دونَ جَدْوى.

وَانبعثتْ كلماتُهَا مُتقطعة وَهِيَ تقولُ:

– إنيِّ خَائفة يَا أدهم..خَائفة. أجْهَشتْ بالبكاءِ.

* * *

كانتِ الغيرةُ تملأُ زميلاَت أشـجان مِنْ جمالهَا وفتنتهَا

وَرَشَـاقتها وَرِقتها، فلمّا أصابهَا مَا أُصيبت بِه مِنَ البدانةِ تبدّلَ حقدهُنَّ وغِيرتهنّ إلـى سُخريةٍ وَشَمَاتة.

بـدأتْ أَشْـجان تُفكـرُ..!! هَلْ بـدأت مَعْركتهَا الآنَ معَ الحَيَاة؟ وكيفَ تسـتطيـعُ ذلكَ؟! وَهل فى وَسـعهَا ترويضُ ذاتهَا عَلَـى مُقَابلةِ، مثلِ هذه الأمورِ وتحمُّلها مِنْ مقالبَ وَمَسَاخِرَ ستتعرضُ لهَا مِنَ الآن فَصَاعِدًا.. وَمِنَ حينِ لآخَرِ؟

دخَلتْ أشـجَان إلـى البيـتِ. مَا بالُ هذَا الحزنُ الذِى يكسُـو مَلامحَهـم؟ مَاذَا بـهِم؟ بَلْ مـاذَا أصَابهم؟ هَلْ مِنَ المكـنِ أَنْ تتبـدلَ كلُّ الأُمورِ هكذَا فَجْأةً؟ فِى المدرسَـة.. سُخرية! فِـى البيتِ.. أحزَان!!

أبصرَتْ مِلفاً كُتبَ عليْهِ اسْمُهَا.. وَقعتْ منه صورةٌ بغتةً وَأُمهَـا تحُاولُ إخْفَاءَهُ عَنْ عيونهَـا. كانتْ صُورتهَا..وهِىَ بهذَا الشكلِ، والمنظرِ المفزعِ، السَّمينِ. ومكتوبًا عليهَا تاريخَ الستَّةِ أشهرِ التِى راحت فيهَا تسمنُ وتتضخَّمُ حَتَّى بَلغتْ هَذَا الوزنَ الضخْمَ. وتقابلتْ نَظَراتهمَا. نظرةُ أمٍّ تُخْفِى سِرًّا مَجْهُولاً عنِ ابنتهَا الوَحِيدةِ، ونظرةُ شـكٍّ مِنَ ابنةٍ تبحثُ

عَنْ سِرِّ حياتِهَا، وأيُّ نجاةٍ تتعلّقُ بهَا لتفكَّ بِه لغزَ حياتِهَا بَلْ وَسِرَّ أُسْرتِهَا.

فقالتْ لهَا أشجَانُ بذعْرٍ:

– إلى مَنْ تُرسلينَ أحداثَ حَيَاتى؟ مَنْ تُخاطبينَ عَبْر الكمبيوتر ليتتبعَ كلَّ أَخْبارِى؟ مَنْ يَهمُّه أمرِى؟

وبسرعةٍ استطاعَت الأم أنْ تجدَ مخرجًا مِنْ هذَا المأزقِ فقالتْ:

– إنه أنتينورى يَا حبيبتِى.. أبعثُ لَه حَالتكِ ربمَا يجدُ علاجًا لكِ وتشفينَ فتعُودينَ مثلمَا كُنتِ.

– أنتينورى طبيبُ نساءٍ وولادةٍ وحالاَت عقمٍ، فمَا شَأنه بالهرمُوناتِ والغددِ والتضخُّمِ والسِّمْنة؟!

* * *

الأمومة الكاذبة

تلعْثَمَت.. لكنهَا أَجَابت:

– هو يتابعُ جميــعَ حَالاتِ ولاَداتــهِ.. خَاصَّة اللَّاتي كُــنَّ يعانيْنَ مِنْ عُقم أوْ صُعوباتٍ فِي الولاَدةِ مثلَ حَالتِي.. وَيوُجِهِهَا للمتخصِّصِينَ فِي الخَارج عَنْ طَرِيقِهِ.

كانــتْ أمهَا تكذبُ بَلْ أصبحَت بَارعَةً فِي ممَارســةِ شــتَّى فُنــونِ الكــذبِ.. وهذَا هُوَ الشــئُ الوحيــدُ الَّذِي لاَ يســاورهَا فِيه شَــكٌّ.. وهذَا وَحــدهُ كانَ كفيلًا بتأكيدِ شكوكهَا وَظنونـهَا.

فتلعثمهَا الدائمُ، واضطرابهَا المستمرُّ لا يدلانِ عَلى حَالةٍ مــنَ القلقِ والحــزنِ عليهَا، قدرَ مَا هُوَ دليــلٌ عَلىَ كذبهَا وإخفائهَا أمرًا مَا.

لكنْ يبدُو أنَّ شــكوكَهَا لمْ تنتهِ بَعْــد، بَلْ كَانت تنْدَثرُ تحتَ شــعَار: المجرمُ بريئُ حتَّى تثبتَ إدَانته. ورغمَ أنهَا كانتْ عَلى وشَكِ الاقترابِ والاقتناعِ مِنْ بَرَاءتها.. إلاَّ أنهَا الآنَ وَقَد تعرَّى سُباتهَا تشتعِلُ مِنْ جديدٍ ظنُونُهَا..!

كلا.. فلمْ تعدْ ظنونًا، بَلْ أصبَحت يقينًا. وَتوالتْ صرخاتُها بعدَ أنْ عَجَزت عن السّيطرةِ عَمَّا بداخلهَا مِنْ قسوةٍ وَعُنْفٍ لِهَذهِ الأمِّ:

– لستِ أمي.. لسْتِ أميِّ..

وتركتهَا أشجَانِ وخرجَت بعدَ أنْ طعنتهَا كلماتُها، وراحَت تنزفُ وتسيلُ دِمَاءُ حبهَا.. وهَا هِيَ الآنَ، تحصدُ مَا غرستهُ إرضَاءً لغريزَةِ الأُمومَةِ.. بعدَ كلِّ مَا فعلتهُ تنهرهَا ابنتُهَا بكلماتٍ: لستِ أميِّ.. لستِ أُمِّي..!

راحَتْ تترددُ على أُذنيهَا وتدوِّي برأسِهَا، فتكادُ تصمُّ أذنيهَا. سَقَطتِ الأم كمدًا وحزنًا مِنْ تلكَ الصَّفعةِ القاسيةِ.. ولأولِ مرةٍ تبكِي بعدَ بكائهَا عَلى طفلتهَا الرَاحِلة.

كيفَ اسْتطاعَت؟ بلْ كيفَ تجرَّأتْ بعدَ كلِّ مَا فَعلته مِنْ أجلهَا؟ لكنْ لهَا المعذرةُ فِي كلِّ ذلكَ، فَهِيَ لاَ تعرفُ كَمْ أنفقاَ منْ مبالغَ وتضحِيَاتِ لإخراجِهَا وَإعادتهَا للحياةِ مِنْ جديدٍ، وَجَلستْ بمفردهَا بعدَ أنْ أوْصَدتْ عليهَا بابَ غرفتهَا، دونَ الآخرينَ وفتَحتْ ملفَّ صورهَا منذُ ميلاَدهَا.. وحتىً هذِه اللّطْمَة القويّة القاسِيَة، كانَتِ

الدموعُ تتسابقُ عَلى وِجْنتيهَا، لقدْ فعلتْ كلَّ شيءٍ بَلْ وَقدَّمَت كلَّ مَا تَمْلكُ، لكنْ لمْ تستطِع السَّيْطرة عَلىَ قلبهَا، فهىَ لا تشعرُ بأُمومتهَا وبنوتهَا لهَا وكأنهَا تمثلُ دورًا ثقيلًا لاَ تستطيعُ إتْقانه، حَتىَّ تجرَّأت وَقالتْ لهَا عَلانيةً بَلْ سُفُورًا وتجاوُزًا.. لسْتِ أُمِّى.

وَأسْندت الأمُّ رأسهَا عَلى وِسَادةِ فراشهَا الوَثير، تفكرُ كيفَ وَقَدْ تحققَتْ كلُّ أحلامِهَا.. شعرتْ أنه كَمَا يوجدُ مَا يُدْعى بالحمْلِ الكاذِب، فهناكَ أيضًا الأُمومةَ الكَاذِبة. فهىَ كَالأمِّ الكَاذِبة، والحمْلُ الكاذبُ، بَلْ الأم الفاشِلَة، فلمْ يَسْتطع المَالُ أنْ يخضعَ لَهَا طِفلتهَا وَقَدْ أعادتهَا للحَيَاةِ، لقدْ فَعَلت المُستحِيلَ.. عاشتْ حياتهَا تحتَ شعارٍ واحدٍ: وَهُوَ أنهُ لاَ يوجدُ شيءٌ اسْمهُ المسْتحِيل. كَلاَّ.. فالحبُّ هوُ المستحيلُ الوحيدُ الَّذِى وَاجهتْهُ فِى هَذهِ الدنيَا.. وحبُّ مَنْ..؟ طفلتهَا الوحِيدة..!

أَغْمضَت عينيهَا رغمَ السيلِ المُتدفق مِنْ عينيهَا حتَّى لاَ تَرَى خيبةَ آمالهَا.. وَنتِيجَة إصرَارهَا عَلى أَنْ تكونَ أُمًّا..

لقـدْ عَجزتْ بعدَ كلِّ مَـا فعَلتْ أنْ تنـالَ حبَّهَا، وتملكَ قلبهَا. فَشَلتْ فِي أنْ تكونَ أُمًّا.

* * *

اقـتربَ- القردُ الشَّـقِيُّ كُوكِـي- مِنْ أشْـجَان.. فهوَ صَديقهَـا الَّـذِي لَمْ يخرجْ مِـنْ غُرفتهَا، حيـثُ كانَ فِي انتظارِهَـا كَالمعْتادِ، وقفَ عَلى كتفهَـا، فجذبتهُ وَحَملتهُ بحنَانٍ، ثمَّ جَلَسَـت عَلى مقعدٍ وثير تنظـرُ إليه بصمْتٍ، فراحَ يضعُ كَفَّهُ يتحسَّسُ وجههَا، فانهَالتْ دموعُهَا وَهِيَ تقول ودموعهَا تحشْرجُ صوتهَا وتقطعُ كَلماتِهَا:

- حتـىَّ أنتَ يَـا كوكي تشـعرُ بتغيـيرِي وتضخُّمِي فتتحسسُ وجْهِي غرَابةً وَاندِهَاشًا.

فمسحَ دموعَهَا ورَاحَ يقبلهَا وَكأنه يُوَاسيهَا، فضغطَتْ عليْهِ بذراعيْهَـا تَحْتضنُه وتنتحِبُ، وكانَ القـردُ كوكِي يمرُّ بكفِّهِ وأصَابعِه الدقيقةِ عَلى شعرهَا الكثيفِ مِنَ الخلفِ لتهْدئتهَا.

كمْ مِنَ الوقتِ مرَّ عليهَا وَهِيَ عَلىَ هَذِه الحَالةِ، سَاعَاتٌ طَويلَةٌ مضَـت دونَ اكتراثٍ منهَا. فراحَـتْ تُحَدثهُ قَائلةً بعزمٍ وإصْـرَار: كلَّا.. لا يجبُ الاستسْـلَامُ.. أليسَ كذلكَ يـا كُوكِي.. إنَّهُ مرضٌ، ولا شـكَّ فِي أنَّ لـكلِّ داءٍ دواءً،

ربمَا سَيطولُ الأمرُ، ولكن لكلِّ بدايَةٍ نهايَةٍ، وَمَا علينَا إلاّ الصَّبر، ولنْ أتركَ المدرسةَ، أليسَ كذلكَ؟

راحَ كُوكِــي يُدَاعبهَا، وَكأنَهُ يَفهمُ مَا تقولهُ، وكمْ كنتُ قاسيةً عَلى أمِّي، انفعلتْ أكثرَ ممَّا يجبُ وكانَ لزامًا عَليَّ ألا أعَاملهَا هَكَذا، ولكنني أشــعرُ بأنهَا ليسَتْ أُمِّي، فعلًا يَا كُوكِي، إنَّنى أشــعرُ بذلكَ، لكنَّ مُرْضِعتِي تلكَ الصَّغيرة (دنيــا)، أشــعرُ بأمومتهَا وَحنانهــا الَّذِى يُغَطــىّ قلْبِي. إن قَلْبِي يُحدثنِي بأنهَا أميّ وليسَــت مُرْضعتِى فقطْ، فَهِيَ أقربُ الناسِ إلىَّ وأقربُ إلىَّ مِنْ أميّ.

دقتْ دنيا عَلى البابِ للمرَّة الثَّالثةِ.. فقررَتْ أشــجان أَنْ تفتــحَ لهَا، وتبدُو طبيعيَّةً وكأنَّ شــيئًا لمْ يكُنْ، فهىَ مُصَابــة بمــرضٍ ما، حَتىّ لــوْ كانَ غَيرَ معــروفٍ وَلكنه سَــيُعرف، قطعًا سَــيُعرف، وَسَــيَأتى الوقتُ لعلاجِهَا. ونهضَت مِــنَ الفراشِ بصُعُوبة وَتَعثُّــر.. فتحَتِ البابَ.. فكانتْ دُنيَا تحملُ بينَ يديهْا صينيَّةً كَبيرَةً عليهَا أشْــهَى المأكولَات، فابتسمَت أشجَان وصَاح كوكِي مُهلِّلا بأصَابعِ الموزِ المَوْجُودةِ فوقَ الصِّينيَّةِ.

جَلَسَت أشجَان إرضَاءً لدنيا الَّتِي هرمَت وَشَاخَتْ حُزْنًا عَليْهَــا، وَرَاحتْ تتظاهرُ بابتلاَعِ الطَّعام، وَتُخْفي نظراتهَا المُتكســرَة عنهَا حتىَّ لاَ تزيدهَا عذابًا وحزنًا فوقَ عذابهَا.

وَطَّدتْ أشجَان نفسهَا عَلى تَقبُّلِ تَلكَ النائبةِ؛ حَتىَّ يقضِيَ الله فِي أمرهَا، وَلكنْ..!! هَلْ ستنجحُ فِي مُوَاجهةِ الحياةِ بهَذَا الشَّـكل؟ هَلْ ستســتطيعُ الاســتمرَار فِي درَاستهَا؟ هَلْ سَــتلتحِقُ بالجَامِعــةِ؟ هَلْ بمقدروهَا ارتــدَاء قناعٍ مِنَ البــلادَة وَالهدوءِ وعَدَم الاكترَاثِ واللَّامبالاَةِ؟ وَإلاَّ ســتَظلُّ تشــعُّ الكآبةُ حيثمَا تحَلُّ وتهــلُّ.. وأينمَا تكونُ، لتتحول نظَرَاتُ الإعجابِ فيمَنْ حولهَا إلى شــفقةٍ وحزنٍ وعذابٍ. هلْ بوسعهَا التمثيلُ وإخفاءُ مَا بهَا؟

لقــدْ كان أكْثــرُ مَــا يميزهَا مِــنْ جمَالٍ هُــوَ فطرتهَا، صِدقهَــا، حُرِّيتهَا، فلمْ تقوَ يومًا عَلــى الإدعَاءِ أو النفَاقِ أو التَّمثيلِ! ولكنْ آنَ الأوانُ لتضحَكَ وهِيَ تبكِي وتَصْمت وقلبهَــا يَصْــرخ، فلابدَّ مِــنْ ردَاءٍ غيرِ هَذَا الــرِّدَاء. وَكمَا تتغيرُ ملامحُهَا مِنْ حينٍ لآخرَ، فلتتغيرْ بدورهَا ملابسُــهَا لتليقَ وَتتــلاءمَ وحجمهَا المتزَايدُ باطرَادٍ، وَلابدَّ وَأنْ تتغيرَ

انفعالاتُهَــا وإحسَاســـهَا باليأْسِ والخـــوفِ والقَلَقِ، لابدَّ وأنْ تبدُو سعيدةً كعَادتهَا.

وإذَا كانَ بوسعهَا تحقيقُ كلِّ ذلكَ؟ فإلَى مَتَى؟ وَلمْ يمضِ وقتٌ طويلٌ إلاَّ وَتظَاهَــرتْ دنيَا بالنُّعاسِ، فجذبَتْ كُوكِي مِنْ ذِرَاعِه عَلَّه لا يُزْعجهَا، فَحَملته أشجَان قائلةً:

– دَعِيـــه مَعِي، فهوَ يخففُ عَنيِّ كثــيرًا وَيمْنَعُنِي منَ التفكيرِ، اتركيهِ يرقدُ بجوَارِي اليومَ، فأنا بحَاجةٍ إليْه.

– ولستِ بحَاجةٍ لـي؟

– أنــا دَائِمَــة بحَاجــةٍ إليــكِ، فأنتِ أُمــيِّ الصَّغيرةُ وصَديقتِي الوحيدةُ، وأرجــوكِ لاَ تحزَنِي هكذَا لحَالتِي، فكليِّ آمالٌ فِي العلاجِ وَكلُّ شــيءٍ ســيعودُ عَلىَ مَا يُرَام، فاطمئنــيِّ يَا أميِّ الصَّغِيرَة طابَ مســاؤكِ يَا حبيبتِي وَقُرة عَيْنِي. وَقَبَّلَتْهَا، وأَسْــرعت للخروجِ وهِيَ تُخفِي دموعَهَا، فأعادتْهَا أشجَان إليهَا وَهِيَ تقولُ:

– لماذَا لاَ تنادِينِي بإش إش؟ مِنَ الآنَ فصَاعدًا لا تنادِينِي سِوَى بـ إش إش، أرجوكِ. فهذَا يروقُ لِـي كثيرًا.

– أجلْ يَا حَبيبتِي.

- كَلّا، أَجَل.. يَا إِشْ إِشْ.

- أجَل يَا إش إش.

وَعَبثًا حَاولت أشــجَان النــومَ دونَ جَدوى.. كادَ القلقُ يأكلهَا، والفكرُ يلتهمهَا.

وكانتْ دنيا تتقلّبُ في فراشــهَا عَلــىَ جَمْر مِنَ الأَتُونِ المُسْــتعرِ، وهيَ ترَى قرّةَ عينهَا تَضِيــعُ منهَا هكذَا، وهِيَ مَكْتوفةَ اليديْنِ حَائِرة الفكرِ لا حولَ لهَا وَلا قوةَ إلاَّ باللهِ.

* * *

يجلسُ أدهم سَــاهراً، لم يغمــضْ لَه جفنٌ، وهوَ يبعثُ رسَــائلَ حالتهَــا إلى كبارِ أطباءِ العَالم. فَلــنْ يهدأَ لهُ بالٌ ويســتقرَّ لهُ فكرٌ إلاَّ بعدَ عِلاَجهَا، وكلهُ أملٌ فِي علاجهَا. ينتظرهَا ليقومَ كعادَته بتوصِيلهَا للمَدْرسَة.

- أدهــم مَاذا بِــكَ؟ هَلْ آكلُ طعَامَك.. لتمسِــي نَحِيفًا شــاحبًا، وأصبحُ سَمينــة غَليظَة؟ مَاذَا أصَابــك؟ بلْ ماذَا دَهَاكَ؟ لماذَا تشحبُ هكذَا يومًا عَنْ يوم؟ أخشَى أنْ تصبحَ قريبًا خَيَالًا وشــبحًا مُتحركًا فَلاَ أســتطيعُ رُؤيتكَ إلاّ مِنْ خلالَ صَوْتك؟

– لا تنشغلِى بأمرِى يَا أشجَان؟ فأَنَا عَلى مَا يُرَام، المهمُّ أنتِ.. أنتِ يَا حبِيبتِى.

ابتسمَت قَائلةً وهىَ تجاهِدُ وتصَارعُ منْ أجلِ أنْ تَتظَاهرَ بالابتِسَام: وَأنا أيضًا عَلىَ مَا يُرَام.. ألَا تصَدِّقنى؟!

وقـف زُملاءُ الفصلِ خلفَ الباب لاَ يَقْوونَ عَلى فَتْحه، وحـاولَ البعضُ كَسْـره واقتحَامَه فذهـبَ أحدُهُم ليحضِرَ مطْرقةً أوْ أيةِ آلةٍ حَديديَّةٍ لفتْحِه، بينمَا اقتربَت أشـجَان مِنَ البابِ وَبضَغْطةٍ واحدةٍ مِنْ كتفهَا لَمْ يُفتَح البابُ فحَسبُ بـلْ خُلِعَ تمامًا مِنَ الجدَارِ، فأمسَـكت بِه وأسْـندتهُ عَلىَ الجِدَار. سَألتِ المعلمَةُ:– مَنْ خلعَ هَذَا البابَ؟

ضحكَ الجميعُ وتفوَّهَ البعضُ يَقُولُ: «دبدُوبَة السمينَة».

وَقفتْ أشجَانُ.. فبدَت طويلَة جدًّا، أصبَحت أطْول مَنْ فِى المدرسَةِ وأعْرَضُهم وَأثقلهمْ وزنًا، وقالتْ بصُمُودٍ:

– أنَا يَا أبلة.

– لماذَا يَا أشجَان خلعْتِ البابَ هَكذَا؟

– أنَـا لمْ أقصِدْ خلعَه يَا أبلة، لكننِى أردتُّ فتحَه فقطْ فلمْ يتحمَّلْ وخُلعَ فى يدِى لضَعْفه.

ضحكَ الجميعُ. فاندفعَتْ أشــجَانُ كَالسَّهمِ مُنْطلقة بِسرْعَة مِنَ المدرسَــة تاركة أدَوَاتَهَا وَحَقيبتهَا.. ووَصَلَت إلىَ شــجرتهَا المُفَضَلــة وجَلسَــت بمفردهَا تبكي وتنتحِبُ ورَاحت الشــجرةُ تُظِلهَــا بفرُوعهَــا العَريضَة وَالمَليئة بــالأوراق الخضرَاء. كانتْ أوراقُهَا تحدثهَا.. لكنْ مَا بالهَا اليومَ لا تسمعُ صوتًا غيرَ صوتِ بكَائهاَ؟ لمْ يكنْ بوُسعهَا تحمُّلَ كُل هذَا الحمْل الثقِيل وحدهَا. وَتمنَّت لَوْ كانَ أدهم بجوارِهَا الآنَ لمسْح دموعِهَا ويخففَ عنهَا مــنْ وَطْأةِ تلكَ الأحدَاث التِي بَاتت تتعرَّضُ لهَا.. كانتْ أقوَى وَأشــد مِن احتمالِهَا فلمْ تســتطعْ أنْ تألفهَا أو تتبلَّدَ تجَاههَا. وَلـمــاذا أدهم وَحْده الذى قُدر لهُ أنْ يحملَ معهَا هذَا العَذاب؟ لـمَاذا أدهم يكونُ نصِيبَهُ مِــنَ الدنيَا فتاةً مريضَة وَمُصَابة بعلَّةٍ مِنَ العللِ المسْتعصيةِ وَالتِي لا علاجَ لهَا حتىَّ الآنَ وَلاَ أملَ فِيهِ؟ لماذا تعذبهُ بوجودِهَا وَرُؤْيتهَا هَكذا عَلىَ هَذَا الحَال؟

رفضَت أشــجانُ الخُروج منَ البيــتِ للتحاليِل والفحْص والكشــفِ. ورفضَت كلَّ شيءٍ وَقَررت عدمَ العودةِ للمدرسَة. وازدَادت حَالتُهَا سُوءًا. فَراحَت تتورَمُ وتتضخَّم بمرورِ الوقتِ.. وَفَشلتْ مُحَاولات أدهم المسْتمرَّة فِي مُقَابلتِها وَرُؤْيتهَا.

فجأةً حُرِم منهَا دونَ سابقِ إنذَار.

كيفَ يستَطِيعُ ذلكَ؟! وقَدْ كانَ لا يمرُّ عليهِ يومٌ دونَ رُؤْياها؟ فَلمْ يوطِّنْ نفسَه عَلَى ذلكَ..!

كيفَ هانَ عليهَا حِرْمانه منهَا وَهِيَ تعرفُ قدرَ حُبه لهَا؟ كانتْ لا تمرُّ ساعةٌ مِنَ الزمنِ إلاَّ ويسألُ عنهاَ أو يمرُّ ببيتهَا طمعًا فى رُؤْيتهَا.

لكنْ باءتْ كلُّ مُحَاولاتهِ بالفشَلِ. كانتْ كلَّ يوم تزدادُ وزنًا وطولًا وعرضًا..! فِى أشهرٍ قليلةٍ أصْبحت تبلُغُ منَ الطولِ متريْنِ ونصفَ المترِ. وتبلُغُ مِنَ الوزنِ مَا يقربُ مِنْ مائتيْنِ وخمسينَ كيلوُ جِرامًا.

فَجْأَةً أصبحَت تنمُو نموًّا غَيْرَ طَبِيعي لَمْ يُعْهَدْ مِنْ قبلُ.. حتَّى بَاتت تَخْتفِى عَنِ العيونِ، لتتَوارَى خجَلًا وَحَياءً مَنْ ضَخَامتها.. واختفتْ عَنِ العُيوُن.

وجاءتْ معركةُ الأُمِّ ضحية مِنْ جديدٍ، وَقدْ ظَنَّتْ - وَباطلًا ظَنَّتِ- أَنَّ الحياةَ تركتهَا وشأنهَا لتنعمَ بكلِّ هذَا النعيمِ دونَ رقيبٍ أوْ عتيدٍ منْ زَبَانية الدنيَا وأعدائهَا.

بَعدَ كلِّ مَا قدمته لهَا منْ عَطَاءات وَمِنَح.. وَآن الأوانْ لتسديدِ ضريبَةِ مَا سَلَبت.. لتجرِى خلفَ الأطباءِ فِى كلِّ مكانٍ، يمينًا وشمالًا، بحثًا عنْ طريقةٍ لوقْفِ هَذَا النُّمو.

أفزعَها تصريحُ الأطباءِ بأنَّ هناكَ خَللًا جِينيًا ورَاثيًّا فِى هُرمون النُّمو، وأنَّ هذَا الاضطرَابَ الهرمُونِى سيستمرُّ حَتَّى المَوْت، وستتضَخمُ الفتاةُ لكنهَا لنْ تعيشَ طَويلًا ثمُّ تَوَالتِ اللطمَاتُ الواحدةُ تلوَ الأخْرَى.

* * *

وفجأةً..!

فتحَت الأم البابَ لتتسلَمَ مُذَكرة بحكم قَضَائى.. نظرتْ عيناهَا تقرأُ هذَا الحكمَ فَصَرختْ صرخةً مُدويةً أفزعَت كلَّ مَنْ فِى البيتِ وصَرَخت بفزعٍ وَهِىَ تقولُ:

مُسْتحيل.. مُسْتحيل..!

حكَمــت المحْكمةُ بمصَادرةِ أشــجَان، لمعرفةِ أســبابِ تَضَخمهَا ووضعهَا تحتَ الحِرَاسة والعنايةِ المُركَّزة حفاظًا عَلىَ سَلامتها وضمهَا تحتَ رعايةِ الإشرافِ الطِّبى للحَالاتِ المُسْتعصيةِ والشَّاذة أوْ غير المألُوفَة.

جاءهَـا الحكمُ بمُصـادرةِ الطِّفلةِ المُسْـتحيلةِ، ووضعهَا تحتَ العِنَايةِ الطِّبيةِ والفحْص المسْتَمر.

ونُزعَت أشـجَان بقوةِ القَانُون لإجـرَاءِ التجَارب عليهَا وَهَيَّأ المسْتشـفَى المكانَ الملائمَ لهـذه الطِّفلةِ الضَّخْمة غيرِ الطبيعيَّةِ والتِى يبلغَ طولُهَا ثلاثة أمتارٍ وَتزِنُ ثلاثمائة كيلُو جرام وحبسُوهَا فِى رَدْهةٍ واسِعَة.

أجَـلْ..! كانَ جناحًا وارفًا ترفًا بالـغَ العنايةِ إلاَّ أنه كانَ بمثَابةِ زِنْزَانة.. ضاقَتْ عليهَا الدنيَا وإنْ رحُبت. فقدْ كانتْ تشعرُ رغمَ اتساعِ الجنَاحِ الَّذى تُقيم فيهِ بضيقٍ وَأنَّهُ سيطْبقُ عَليْهَا.

وكانَ أدهم رَغـم أنه طَليقٌ فـِى الدنيَا إلاَّ أنَّهُ حَبِيس، يِشعرُ أنَّ الدنيا قبرٌ بمَا وَسعتْ لعدمِ وُجودهَا مَعَهُ، فلمْ يعدْ يتذوقُ فيهَا أىَّ شيء.

حبسوهَا كالحيوَان..!كَالوَحْش الضَّارِى..!فهمْ يتوقَّعُونَ أنهَا سَتتوحَّشُ وسيصعبُ السيطرةُ عليهَا.

وتبدلَ كلُّ شيء..

شكلهَا الجَميل.. ملامحهَا الدقيقَة.. أخذَت فِي الغِلْظة.. أصبحَت مُخِيفة، مُرْعبة، يظنهَا الرَّائِي غُولًا مُتَوحشًا مِنْ صُنعِ الخيالِ. حيوانًا مِنْ حَيوَاناتِ الأَسَاطيرِ المُوحِشة..! فَـكلّ ما فِيهَا تحوّل، وتبدّل، وَتَغّير إلاّ قلبُهَا.. قلبُهَا..! الذِى ظلّ وحْده يُعَانِى مَأسَاةً مِنْ صُنعِ الآخَرِينَ.

* * *

أكبر حيوان تجارب فى العالم ..!

ظلّتْ حَبيسةَ زِنْزَانة، ضخمةٍ.. كالوحْشِ المُفترِس..!

رَهينةُ الحيَاة..! تتمنَّى.. حيْثُ لا يُجْدِى التمنِّى.. الخروجَ مِن سجْنِ الحياةِ، وهلْ لهَا مِنْ سبيلٍ فِى ذلكَ؟ وماذا تفعَلُ؟ وَقـدْ ظنَّت أنهَـا أفلتت مِنْ ظُلمةِ الرحِم إلــى ظُلمة الحَيَاة! أصبَحَـتْ وَحِيدةً.. كلُّ يـوم يأْتى غُربَـاء.. زُوّار.. علمَاء.. صَحفيـون.. مُذِيعـونَ.. مُصوِّرونَ.. منْ كافـةِ أنحَاءِ العَالم.. لكنهَـا ترْفضُ.. تأبىَ.. تَصْمتُ. وَرغـم ذلكَ يجبرونها عَلَى اللقاءَاتِ يُطَعمونهَا بالعَقاقير.. الجميعُ أتَى هُنَا لفحْصهَا.

أصْبحَت فُرْجـة.. يتطلعُ إليهَا الآخرونُ بهلـع وفـزَع وفضُـولٍ.. وكانتْ أخبارُهَا لدَى أدهـم تَزِيدُه عَذابًا فـوقَ عَذابه. لم يكنْ قدرًا وَحسْـب.. بـلْ كانَ الجحيمُ بَعيْنهِ، الغريبُ انّهُم يُطلقونَ عليهَا (البِنْت المتوحِّشَـة) كانَ قلبهُ ينفطـرُ تمزقًا، وَاحْتراقًا عندَ قِراءته أخبارهَا تلكَ وَمَا يذاعُ عنَهَا، ويشاعُ.

تركَ هو الآخرُ مَدْرسته.

تدخُلُ أمهُ غُرْفته فتقولُ له:

– إلى متَى يَا بنى سَـتظلُّ على هَذه الحَالة؟ لقد أهملْت دروسَكَ ومدرسَتكَ، وترفضُ الطعامَ زاهدًا فِي كلِّ شيء وتجلِسْ بمفـردكَ إمّا ذاهبًا، حيثُ لا أدرِى وإمَّا جالسًـا تبحثُ عنْ عناوينَ لأطباءٍ مَجْهُولينَ.. مَتَى تفيقُ مِنْ هذيانكَ هَذَا؟

يُخْفِى أدهم وَجْهه عَنهَا وهوَ يحدثهَا وَيُخْفِى الصحفَ العديـدةَ وصورهَا المفْزِعَةَ التـِـى تتصدرهَا عَنْ ناظرِىْ أُمِّه فتقولُ لهُ بشفقَةٍ وعطْفٍ:

– يَا بُنَىَّ هَذَا أمرُ اللّهِ..

يجـبُ ألا نفقدكمَا فِـى وقتٍ واحـدٍ.. وكفانَا فجيعَة وَمُصيبة وَاحِدة فِي أشجَان.. فَنَجِّ نفسَكَ مِنْ هذِه الظُّلْمةِ.. وَعُدْ إلىَ حَالتكَ الطّبيعيّة، عَسَى اللّه أنْ يشفيهَا. فتجدكَ قويًّا.. صَلْبًا، لا هزِيلًا ضَعِيفًا. فَاشلًا؟

– كَلاَّ يَـا أُمىِّ.. لنْ أسـتطيعَ.. فنحـنُ روحُ واحدةٌ فِى جَسَديْنِ.. وإذا حَدثَ لهَا أىُّ مكروهٍ فَلابدَّ أنَا الآخرُ مُلاَقيه.. وَدَعينِى وَشأنِى، فلمْ يعدْ لى فِى الدنيَا شىءٌ بعدهَا.

* * *

يجلسُ أدهــمِ وَحْده تحــتَ ظلالِ شــجرتهمَا الوَارفةِ الظِّلال التِي يشــكو إليهَا حَاجتَــهُ، وراحَ يتذكَّرُ أول مرةٍ حينَ التقتْ أشجَان بِهِ، وقتهَا ملأهُ الإحسَاسُ بزلزَالٍ يهزُّ الأرضَ مِنْ تحْتِ قدميْهِ.

لكن..!

مُســتحيلٌ ألاَّ يكونَ لمرضهَا دَوَاء. فَلَــم يخلقِ الله داءً إلاَّ وخلــَق لهُ دَوَاء. وَالله يعلــُم كَمْ أنا بحَاجةٍ إليهَا.. وكَمْ سيشــفقُ بِي ويرحمنِي ويعيدهَا إليّ. فأنَا بدونهَا لســتُ شــيئًا، أيُّ شيءٍ. وكانتْ قســوةُ الحرمَان منهَا وَشدّ الألم والحــزنِ منَ التفكيرِ فِــي المَصِير الحتمِي الَّــذِى ينتظرُهُ بدونهَا. يَجْعله يأملُ ويتعلقُ بأذيَاله أشــدَّ التَّعلق. فالأَملُ هوَ المعينُ الوحيدُ لكشــفِ البلْــوَى، وَنوائبَ الدهرِ التِي تُصِيبنَا. واســتمرّ عَزْمه، ومُحَاولاتــه المُتعثرةً فِي لقائهَا، لا يكِلُّ. لا يَهْدأ، لا يَستريحُ. فلنْ تهدأَ حَالتُهُ إلاَّ برؤيَاها.

مَا أصْعبَ ما هُوَ فيهِ..!

لقــد جاءَ الوقتُ الَّذِى يتمنىَ فيهِ لــوْ ينعمُ الله عليهِ برؤْيتهَــا، مُجردُ رُؤْيتهَا.. فمجــردُ رُؤْيتهَا أصبحَ حُلما

مِــنَ أحلامِه.. بَل الحُلم الوحيدُ الـذِى بَات يُصَلىِّ مِنْ أجْله.

كيــفَ حدثَ كلُّ ذلكَ وَهُوَ رَفيــقُ حياتهَا الذِى لمْ يمرُّ يومٌ فِــى حَيَاته إلاّ وكانَ يرَاهَا فيهِ.. ليصبحَ مِنَ العســيرِ عليــهِ الآنَ أنْ يجدَ ســبيلًا إليهَا. وَلكنه حتمًا ســيرَاها.. فرحمةُ اللهِ بحَالته، ســتتيحُ لهُ فُرصَة لِقائهَا، ليعيدَ إليهِ روحَة وحَيَاته مِنْ جَدِيد.

* * *

أفزعَــة منظرهَــا ورؤيتهَا فِى التليفزْيــون وهى تغمضُ عينيهَا.. رَأى شكلهَا وراحَ قلبهُ يرتجفُ وهو يسمعُ أنباءهَا بالتفصيلِ.. الطفلةُ المُسْتحيلة.. تتحولُ إلِى كائنٍ مُتوحِّشٍ مِنَ الصعبِ ترْويضُه.

البنتُ المتوَحشَــةُ.. ترفضُ الطعامَ، وتمتنعُ عن الكلام. وَلاَ تنظرُ إلىَ أحدٍ.. وكانَ بوِسعهَا لوْ تستطيعُ أن تَمْتنعَ عنِ الحياةِ كلِّهَا، بكلِّ مَا فيهَا، مَا تَرددت لَحْظةَ واحدةً فِى ذلكَ.

ظلتْ أشــجَان حَبيســة تلــكَ الزنزَانــة.. المُكيفة، الهَائلة، رغمَ أنَّ كلَّ مَا فيهَا وَثيرٌ إلاَّ أنه سـجْن. لا تعرفُ

قدرَ ضخامتهَا وهولهَا.. إلا بدخولِ الآخرينَ عليهَا. هلْ هىَ سـجينةُ الجسَــد.. أمْ سـجينةُ تلكَ الجَدرَان؟ فلاَ نافـذةَ تطلُ منهَا عَلــى الحياةِ وَلاَ تليفزيـون وَلا راديو وَلا صُحــف وَلاَ كُتب. زَنزانة هِــىَ.. ولا ريبَ فِى ذلكَ حبيسَة الجدرَانِ الأربعَة.

علَى أىِّ ذنب تُعَاقب لتُلْقَى فِى الجَحيم..؟ هَلْ انتقلتْ للآخـــرةِ دونَ أنْ تــدرى؟ ربمَا حدثَ ذلكَ.. لمَ لاَ.. لكنهَا لمْ تمــتْ بعدَ ولمْ تبعثْ مِنْ جَديد..! كَلاَّ.. فمَا حدثَ هوَ أنهَا بالفعلِ فِى عالم آخرَ غيرَ ذاكَ العَالمِ الذِى عَرفَته..!

عَالمٌ.. لاَ رحمَةَ فِيهِ، وَلاَ إنسَانية.

هُوَ الجحيمُ بعيْنِهِ.. لكنْ..! عَلىَ أىِّ ذنب تُعاقَب.. مثل هذَا العقاب؟ ظلّت حبيســةً كالوحْــشِ الضَّارى، المفترسِ الــذِى يُطمعونهُ فِى أوقاتِ مُحَددة.. رهينةَ الحياةِ وتتمنَّى حَيْــثُ لاَ يُجدى التمنىِّ.. الخروجَ مِنْ سـجْن الحياةِ وهلَ لهَا مِن سبيلٍ فِى ذلكَ؟

لقــد جاءَ الحُكْم عليهَــا وحدهَا. الحكمُ عليهَــا بالحياة دونَ استئنافٍ أوْ نقْضٍ.. حكْمًا قاسيًا.. فتاةٌ محكومٌ عليهَا بالحيَاة!

كَمْ كانَ حكمًا قاسـيًا لا رادَّ لهُ ولا مُعين!! مَا أصعبَ هـذَا الحكمَ وقدْ تَمَّ تنفيذُه..! أصْبَحت وَحِيدة.. فِي عالم بلا رَحْمةٍ. عَالمٍ تحْكمهُ القوةُ وَلا سُـلطانَ للإنسانيةِ عليْه. كلُّ يوم يَأتِي غُرَبَاء.

زوَّارٌ مُختلفـون مِـنْ أنحـاءِ العالم كَافَّـة.. ووجودهَا إجبـاريِ فِي لقاءَاتهمْ رغمَ صَمْتهـا وعزُوفهَا عَنِ الجميع إلاَّ أنهَا مَحَلّ الأنظَار.

الجميعُ يتطلعُ إليهَا بلاَ رحمَة.. يُجرِّدونهَا من ثيابهَا بلاَ خَجَـل، وَلاَ رحْمـة، أصبحَتْ فرجَة.. يسـتبيحهَا الآخرونَ.. ويتطلعونَ إليهَا فِي جُرْأة، وقسـوةٍ وَبشَـاعةٍ، بلاَ اسْتحيَاءٍ.. تارةً بدَهْشةٍ وَفَزَع، وَأخرَى بفضُولٍ وتطفُّل غيرَ مُكْترثينَ بِعَدَمِ رَغبتِهَا فِي وُجُودهم.

ولكنْ ماذَا تفعلُ وقدْ حبسُـوهَا فِي غرفةٍ واسعَة يرتفعُ سـقفهَا بعيـدًا وكأنكَ تقـفُ فِي رَدْهةِ بيـتٍ منْ بيوتِ الخَيَال، وكانَ فراشـهَا كبيرًا ليناسِـبَ جسدَهَا وَطُولها وضَخَامتهَا. وكانَ بابُ الغرفةِ الواسـعَة حَديديًّا ليصْعبَ عليهَا فتْحَة.

كأنَّ المبنى بأكمله بُنى منْ أجلهَا دونَ سائرِ المخلوقاتِ، لكىْ يتلاءمَ وخَالتها وَحسْب.

وهذِه الغرفةُ كانتْ بمثابةِ جنَاحٍ فُنْدقى، به كَافة احْتياجَاتهَا. وَمُسْتلزماتهَا، لكنهُ عظيمُ التكوينِ والشىءُ الوحيدُ الذى يُعْوزه هُوَ المرآة فقدِ انعدَمت بِهِ أيةُ مرَايَا فكانتْ أشــجان تتحسّــسُ وجههَــا وملامحهَــا الغليظةَ وتطيلُ النظرَ إلــى أصَابعها. لقدْ أصبحَ كلٌّ مَا فِيهَا غليظًا، مُخيفًا، مُرعبًا، مفزعًا.

كَمْ أوحشهَا أدهم. كلَّا لنْ تَرَاه.

ودنيــا الرقيقَة الوديعَة أيضًا لنْ تراهَا. فليسَ بوســعهَا رُؤية هذَا الحبِّ الكَبيرِ الذى يحملاَنه لهَا يتحوّلُ ويتبدّلُ لشفقةٍ وَحزْن وَعَذاب. ليسَ بوسعهَا رُؤية عَيْنى أدهم وهمَا تتحــوّلان مِن الأمَلِ إلىَ اليأسِ والوداع والكآبةِ. ومِن القوةِ للذلِّ والهوَان. وَكمْ حاولَ الأطباءُ إقناعهَا بضرُورَة الاستمرَار فِى تناولِ الطعَام حَتىَّ يتســنَّى لهُم علاجهَا دُونَ جدْوى. حَاولُوا إجبارهَا على ذلــكَ أيضًا وذهبت مُحاولاتهم هُراءً وعَبثًــا لا طَائــلَ مِنْهُ. فاجتمعَت إدارةُ المستشــفىَ وَقررُوا إجبارهَا عَلى الطعام بالمحَاليلِ بعدَ تخديرهَا.

مَـا أعجبَ مَـا يحدثُ لهَـا حَتى الرفـضِ والامتناع لمْ يصبحَـا مَنْ حقهَا، فلمَاذا تَعِيـشُ إذَنْ؟ أَصْبحتْ كَفَأرِ المعْمـلِ فِى أيـدِي الباحثينَ والعلمَاء يحبسـونهَا لإجرَاء التجاربِ العِلمِيّةِ عليهَا فتارَة يَحْقنونهَا بمحَاليلَ وَعقاقيرَ وَأُخـرى يعلقونَ تلكَ المحَاليـل لِتتناوَلَهَا رغما عنهَا بعدَ تخدِيرهَا.

كانـتْ تعرفُ وجـوهَ الزائريـنَ منذُ لحظـةِ وُجُودهم وَتَوَافدهمْ عليهَا، لاخْتِلافِ أداءِ الوظَائفِ والمهمَّاتِ الَّتِى يُكلَّفـونَ بَهَا .. فهؤلاءِ الزبَانيـة للتخدِير وَهؤُلاءِ للحقْن، وآخرونَ للتغذيةِ وَتعْليقِ المَحَاليل.

عِلاوة عَلىَ المقاييس التِي يَأخذونَهَا لهَا الطُّول، والوَزْن والعَرْض والصُّور التِي يلتقطُونَهَا لهَا.

كلُّ شـيءٍ مُحَددٌ بالموَاعيدِ والسَّـاعَات، ومَحْسُوبٌ بدقَّـةٍ وعنَايـة فائقةٍ، وَكلُّ ذلكَ مِنْ أجْـل الحفاظِ عَلَى حيَـاةِ أكبرَ حيوَانٍ مَعْملى عَرفـهُ العالمُ حتىَّ الآن. كانَ الحرصُ عَليهَا شـديدًا فحالتهَا لاَ تشغَلُ مصْرَ وحدهَا، بَلْ وتشغلُ العالمَ كلَّهُ.

وكلُّ يــومٍ يمــرُّ .. يَفدُ إليهَا علماءُ منَ الشــرقِ والغَرْب لتمتَلىءَ ساحةُ الرَّدهَة الوَثيرةِ الوَاسعةِ بالعديدِ مِنَ الصَّحَفِيينَ وَالمذيعيــنَ وَالمصوَرينَ والعلمَاءَ مِــنْ مختلفِ أنحاءِ العالمِ وبمختلفِ اللغاتِ يتحَدثونَ، يتعجَّبونَ، يَتَنَاقشونَ.

لكنهَــا الوحيدةُ بينَهُم التِي لاَ تتحدث.. فَهِيَ لا تملكُ الآن شــيئًا سِــوَى الصَّمْت. الصَّمت، الذِى أصبحَ يُريحها مِنْ كلِّ هؤلاءِ وَهــى تَرى فِي وُجُوهَهم ونظرَاتهم الفضُول. وَالعبَث، غيرُ مُكترثينَ بمشــاعِرهَا وَحَالتها الإنسَانية بمَا يفعَلونهُ بهَا منْ تجاربَ وَفحُوص وَصبغَات وَغيرِ ذَلكَ.

المُهم..!!!

هُوَ أنْ يصلُوا إلِى غَايتهمْ وُيحَققوا طُمُوحَاتهم بالحصُول عَلَــى نتائــجَ جَديدَة مهْمَا كَانــتْ تلكَ النْتَائــج .. المهمُّ هُــوَ أنه هنَــا توجدُ نَتَائج مَا. بالقطعِ أيــةَ نتائِجَ وأبحَاث جَدِيــدِة تعدُّ نجاحــا لهَمْ، وَهذَا هُوَ كلُّ مَا يشــغلُهُم غيرَ مُكترثينَ أوْ مُعِيرينَ أدنىَ اهتمَام بالتفكيرِ- ولوْ قليلاً- فِى تَلكَ الكاِئنَاتِ التِي يســتخدمُونَهَا فِــى تجَارِبهم كالفئرَانِ والأرَانب وَالحَشرات.

وَتسَاءَلتْ :

ترَى هَلْ تشعرُ حيوَانَاتُ التجارب بمثلِ مَا تشعرُ به الآنَ مِنْ مُعَاناة وقهرٍ وَعَذاب؟ أجلْ.. ! فَهِيَ لاَ تزيدُ عَنْهُم شأنًا الآن. ومنَ الطبيعِى أنْ تشعَر بشعُورِهم الآن فقَط. وَحُبسَت عـنِ العالـم لتُجرَى عَليهَا التجَـارب دونَ رغبةٍ منهَا فِى ذلكَ. كرهًا وقسرًا وعمدًا.

ولأولِ مرةٍ فِى حَياتها تشعرَ بالكرَاهية. وقَدْ كانتْ تظنُّ أنَّ قلبهَـا ليـسَ فيهِ مَكَانٌ لكرَاهية شـيءٍ مَـا.. فإذا بهَا تتحَوّلُ، تتغيَّرُ، تتبدّلُ الآنَ.

وَلمَ لاَ..!!

وقدَ تبدّلَ كلُّ شـيءٍ حَولهَا بتبـدُّلِ ملاَمحهَا. فتبدَّلَ مُحِيطُهَـا وَعَالمُهَـا وأصْبَحَت تعاملُ مُعَاملـةَ حيوانَات التجَارُب. وَلَمْ يسـتطعْ أحـدٌ مُوَاجهة وَرَفْض هذَا الحُكم الَّذِى فُرِضَ عَليْهم دُونَ أنْ يَعْرفُوا شيئًا عَنْهُ.

كانَ الحـارسُ ينظـرُ إليهَا بخوفٍ، فهِـيَ فِى رَأْيهم مُتَوحشـةٌ لغِلْظةِ هَيئتهَا ومنظرهَا ولكنهَا هَمَسـتْ إليْهِ.. هكذَا خيلَ إليهَا أنهَا تهمِسُ :

- اقتربْ مِنّى.. اقتربْ وَلاَ تخفْ.. أريدُ أنْ أسألكَ شيئًا.

اتسعَتْ حَدَقتا عَينيهِ بنظرَةٍ يملؤُهَا الريبُ والشكُّ منْهَا، كررتْ على سَمْعِهِ.

- اقتربْ، باللهِ.. لا تخفْ منِّى، إنِى أُريدُ رؤْيَةَ دنيا.

فاقتربَ منهَا بحِرْصٍ.

* * *

كانَ أدهم يَهْذِى باسمهَا هذيَانًا لَمْ يَرَه أحدٌ منْ قبلُ.. يبدُو كشبحٍ مِنْ أشباحِ الظَّلام غَير المَرْئية، يمرُّ بحَيِّهَا، يطوفُ بمجلَسِهمَا القديمِ، عندَ شجرةِ حبهمَا، كعابرِ سَبيلٍ..!

تراهُ سقيمًا، يَجرُّ سَاقية جَرًّا. وكأنَّ العشقَ الذِى أَنزلهُ الله على سَمَاءِ الدنيَا وأرْضهَا.. كانَ لِزامًا عَليْهِ حمْله وحْده.

عندمَا بلغهَا أمرُ أدهم وَتغيُّرِ أحْوَاله، وَتبدُّله، وَهذيَانه بترانيمَ كرْبه شعرًا عَنْ طريقِ الحَارس، سَمَحت لهُ، فهوَ كلَّ يوم يأتِى لمقابلتهَا ليعودَ حزينًا وَحِيدًا، لكنهُ لمْ يَكل، أوْ يتعَبْ، أوْ يتوقَّفْ عَنْ مُحَاولاته فِى الإلحاحِ لرؤيَاهَا.. حتى أذنتْ بمقَابلته.

وعندمَا بلغَ أدهم ذلكَ الخَبَر شعرَ أنَّ الدنيَا أضيقُ منْ أنْ تتسعَ لسعَادتهِ، كانَ موعدُه معهَا السَّاعةَ الثَّامنَةَ مساء

فكيـفَ قضَى نَهاره؟ كانَ يمْشــى كثيـرًا.. ليقتلَ الوقتَ ويسـبقَ السَّـاعات ثُمَّ عَادَ إلى بيتهِ.. حَاولَ النَّوْمَ.. لكنَّهُ فَشَـلَ فلَمْ يغمضْ لهُ جفْن.. كَمْ مضَى عَليه منَ الوقتِ وَهُوَ يفكرُ فيمَا سَيقولهُ لهَا..؟

كَمْ عـددَ المرّاتِ التِي نظرَ فيهَا إلى سَـاعَته؟ لمْ تكنْ أكثرَ مِـنَ المرّات التِي توقفتْ فيهَا نظراتُهُ عَلَى سَـاعةِ الجِدَار، ولكنهمَا لسـوءِ حَظـةِ كَانتا متفقتيْنِ عَليه.. فلاَ تسـبقُ إحْدَاهُمَـا الأخرى.. بلْ يخالهمَا وقـدْ توقفَا عَنِ السَّيْـرِ والدوران.

توتـرَت أعصَابُـهُ، واضْطربت عندمَا فكَّـرَ فِي الوقتِ وَثقلهِ.. وقررَ الخروجَ قبلَ الموْعدِ بسَـاعَات.. خرجَ يقطعُ الطريـقَ أمامَ المستشـفىَ ذهَابًا وَإيابًـا.. يتعجّلُ لقاءَهَا وَيترقَّبهُ.. لكنَّ السّاعاتِ مَرّت كأنهَا دَهْر.

* * *

دموع التماسيح

عندمَا فتحَ لهُ الحارسُ بابهَا، شلّت المفاجَأةُ حَركته، ثُم دخلَ عليهَا يجرُّ سـاقيْهِ جَرًّا، يرفعُ رَأْسـه وَعينيْهِ، يَسْبقه قلبُه إليهَا مُرَددًا:

– هلْ سأراهَا الآنَ؟ أحقًا سَأَراهَا؟

فجأةً وَجَدته أَمامَهَا.. مَنْ..؟ أدهم..!! كَلاً..!

لَـمْ يكنْ هُوَ بلْ كانَ شـبحًا مُتَحركًا .. مِنْ شِـدَّة قلقهِ وَحُزْنهِ عليهَا.. كانَ شَـديد الشحُوب بلْ كانَ يبْدُو كجثةٍ أفلتتْ مِنَ القبْر.. يدنُو منَ الموتِ.. وَلكنه لَمْ يفعَلْ.

حَاوَلـت.. وَبَاطـلاً حَاوَلـت الاختفـاءَ عـنْ نَاظريْهِ دونَ جَدْوى..

فرغمَ مَـا بِهَا منْ عِلل مَجْهولةٍ كانتْ تدرسُ جسـدهَا وتحصدُ شَبابهَا، إلّا إنهَا كَانتْ فِي انتظَار الموْت.

كـانَ صغيرَ الحجم جِـدًّا أمامهَا.. فلـمْ يتعدَّ ركبتهَا فَعُنقهُ تكادُ لا تبلغُ رُكبتَها.. بالكادِ تلامسهَا فجلسَت على فراشـها وضمَّت سَاقيهَا شِـبْه جَالسَة ورَاحَ أدهم يتحدَّثُ

إليهَا فيقـولُ: إش إش.. حقًا حَبيبتـي، عدتُ أرَاكِ؟!
أأنتِ بجانبى الآنَ، أمْ حلمٌ؟

تغمضُ عيَنيهَا لأقصَى مَا تسـتطيعُ، وتطبقُ، أهدابهَا. فتفرَّ دمعةٌ هاربَه منْ أسرهَا، وكأنهَا لا تقوَى عَلىَ رُؤْيته. جَلسَت عَلى مقعد وثِير، كبير، ضَخْم.

لمْ يرَ أدهم كائنًا ضَخْمًا، متوحِّشًـا كمَا صورهَا البعضُ بلْ رأى حَبِيبته بعدَ طُولِ غيابٍ.. اقتربَ فلامَسـت رَأسُه أسفلَ ركبتهَا.

– إش إش، ألـمْ تشـتَاقِى إلىَّ؟ أرغبتِ عَـنْ لِقَائى؟ أنَا أدهم يا إش إش.

فوقعَت دمعتُهَا الأسـيرةُ لتسـقطَ مِنْ عينيْهِ هُوَ وتسبقُ كلمَاتهُ، وفتحَت عينيهَا لتبْصِرَ شبحًا سَقِيمًا.. هَزيلًا.

وَراحَ يقبلُ أناملهَا المُنتفخَة المُتضخمَة كلًّا.. لمْ يشـعرْ بأنَّ شيئًا مَا بِهَا قدْ تغيّر. غريبٌ هُوَ أمْرُ الحُبِّ..!! تكادُ لا تعرفُه إلا مِنْ صَوْته.. هَزيلٌ نحِيف..

– أدهم مَالـى أرَى خَدَّيكَ بالدَّمعِ قدْ بُلِّلاَ..؟ أمنْ فرح اللقـاءِ أمْ حزنًا عَلى حَالنَا كمَدًا؟ فدَاؤكَ حبيبِى مِنْ شـرِّ حَادِثى.. رمَاكَ بهذا السقمِ والألمِ.

- بلْ فداؤكَ أنتَ الدنياَ ومَا فِيهاَ.

كانـتْ نبضاتُ صَوْته تـدلُّ عَلى أنه لَا يزالُ فريَسةَ الحزنِ الّذى رَأت عَلاَمَاتـه عندَ مُقابلته آخرَ مرةِ فألحّت عليه بسؤالهَا:

- أدهم.. لا تبكِ.. كفاكَ حُزنًا عليّ.. لا تخَفْ، وانتبهْ إلى نفسكَ، لأنَّ الحزنَ عَليّ مَا حدثَ لَنْ يشفينِي وَيُنْجينى ممَّا نزَلَ بِى.

وَتذكُرُ كلمَاتَهُ مُداعبةً إياهُ فِي مُحَاولةٍ بريئةٍ لطيفةٍ منهَا لإخرَاجِه مِمَّا هُوَ فيهِ:

- هنَـا لا تقعُ العينَ عَلى غيرى وَلاَ غيركَ.. ولا يطّلعُ إنسانٌ عَلى سِرِّى وَلاَ سِرِّك. مَا أعجبَ المُلتقَى يَا حَبيبتى.. لمْ أصدقْ ذَاتِى..

أأنتَ مَعِى مَرَّة أُخرَى؟

يكسـوهَا الحزنُ رغمًا عنهَا، فتفترُ ابتسامتُهَا وتنْحسِرُ وهُوَ يعاودُ قائلًا:

- قـدْ يهونُ العمرُ إلاَّ سـاعةَ رِضَـاكِ.. وتهونُ الأرضُ وَالدنيَا إلاَّ موضعَ قدميكِ.

- كَمْ تُهوِّنُ عَليَّ كلمَاتكَ تلكَ يا أدهم شـَّر مَا أنا فيهِ مِنْ بَليّةٍ وَعَذاب.. فمَازلتَ تتغنّى بِي يَا أدهم حَتَّى بعدَ فِرَاقنَا.

- كلاَّ.. لــْم نَفتَــرِقْ.. ولــنْ نفتــرِقْ.. بلْ وسَــأغنِّي بكِ ولكِ مَادمتُ حيًّا.. يقولُون بِهَا غَنيّ.. قَدْ غنْيتُ منْ كَرْبِي.

- أترانِي يا أدهم.. كيفَ أَصْبحْتُ..!

تملأ عيناهُ الحبّ وِهو يقولُ: مازلتُ بِعَينَيَّ فَرَاشــِتي، طفلَتِي الجَمِيلةِ، ستظلّينَ هكذَا حتَّى آخرَ العُمرِ.

- طِفلة..!

- الطفلةُ أصبحَت مُسْــتحيلة الآنَ يا أدهم..!! أجلْ، فأنَا الطفلةُ العجِيبةُ، المُستحيلةُ التِي لاَ مثيلَ لهَا، وَلاَ شَبيهَ لَهَا فِي هَذهِ الدنيَا.

تنفضَ شــعرهَا الطّويلَ للخلفِ فتبــدُو كجنيةٍ عَجيبةٍ، أَوْعروسٍ مَســحورةٍ مِــنْ عرائِس الأَسَــاطِير، وتتنهدُ وَهِي تجمعُ أَشــلاءَ نفســهَا لتقولَ بمجــرّدِ أنْ رأتْ الدُّموعَ عَلى خَدّيْه:



- كفاكَ دُمُوع التماسِيح تلكَ.. إِذَا كنتَ حقًّا تحبُّنى فمَا يُبْكِيكَ الآنَ؟

هــزَّ أدهم رأسَــه وراحَ يتأملُهَا ويتذكَــرُ أحَاديثهُ التي طالمَا أعجبتهَا.

فقالَ: وهــلْ خدعتــكِ يومًا مَا لتشــبِّهِي دُموعِي بدموعِ التماسيح فمَا أفظعَ المقارَنة؟

ضحكَتْ مُبتسمةً وَهيَ تقولُ: أجلْ فَالتماسيحُ تَفعلُ فِعْلتهَا وَجريمتهَا الشّنعَاء بِالتهَامِ ضَحيتهَا منَ الحيوانَات ثُمَّ سرعَانَ ما تذرِفُ الدمـوعَ الغَزيرةَ بكاءً وحزنًا على ضَحيتهَا.

– كلاَّ.. يَا حَبيبتي..

فالتماسيحُ لا تَبْكِ عَلى ضَحيتهَا أبداً.

– أمازحٌ أنتَ أمْ تسخرُ منِّي؟

– كيفَ؟

عادَ كعادتهِ السَّــابقةِ يتحدَّثُ بثقَةٍ ومعْرفَةٍ.. بالطَّريقةِ الَّتِــي تعجبهَا وَكأنه يتعمّدُ إشــعَارهَا بــأَنَّ كلَّ مَا بينهمَا سيظـلُّ كمَا كانَ.

– ليــسَ بالضرورةِ أنْ تكونَ الدمــوعُ دليلًا عَلى الحزنِ والبكاءِ فالتمَاسيحُ بعدَ أنْ تلتهمَ فَريستهَا (الضحية) تبتلعُ معهَا كميّاتٍ هائلةٍ مِنَ المــاءِ والأملاحِ.. ولذلكَ يجبُ أنْ

يطردَ جســدُهَا كمية الأملاحِ الزائدةِ والضَّارةِ بِهَا المبتلعَة فتخرجَ منَ الغددِ الدمْعيّة وليسَ هناكَ مَخْرجٌ سِواهَا.

– إذنْ فهيَ لا تَبْكِ.

– بالطبــعَ يَــا حبيبتي، إنهَا لاَ تَبْــكِ.. لكنهَا تخرجُ الأملاحَ فَقَطْ.. فليسَ كلُّ الدمع بُكَاءً.

تنظرُ إليه أشجَانُ نظرَة يملؤهَا الإعجابُ والحبُّ.. أدهم كَمَا هُوَ، عَارِفا بكلِّ مَا تجْهله.. كَمْ تحبُّ فيهِ كلَّ شيءٍ.

وَنَسِــيت أشــجَانُ مُصِيبتَهَا، وأحزانَهَا.. فهوَ الوحيدُ فِي هذِه الدنْيا الذِى بِوُسْــعهِ أَنْ يمســحَ أحزانَهَا ويخَففَ آلامَهَا، مَعهُ تنْسى كلَّ شيءٍ، وتحبُّ كلَّ شيءٍ.

مَا لِهذَا الحبِّ مِنْ سِــحْرٍ عَجيب يغذِّى الروحَ فينسيكَ الجســدَ وكُهُولته، وعجْزه واضْطِرابــه، وضَعْفه وَخَالته، فيحوِّلَ السِّجنَ لجنَّةٍ.. وَارفة الظِّلَال.

– أدهم .. كَم أنا بحاجةٍ مَاسَّة إليكَ الآنَ يَا أدهم.

– حاجتِــى إليــكِ يَا أشــجَان تفوقُ حَاجتــكِ إلىَّ.. فمَا أتعسَــنِى حالاً فِى هَذِه الدنيَا دُونــكِ.. فَلتأْخذ الدنيَا كلَّ شيءٍ مِنىِّ.. سواكِ، أنتِ، يَا أشجَان.

وتوقَّعَ بعضُ الباحثينَ تَوحُّشَ تَصرفاتها كراهةً ونتيجةً لمَا حَدثَ لهَا مِنَ اضطرابــاتٍ، جَعَلتهَا بهذهِ الضَّخَامة، وَلاَ شــكَّ ستدفعهَا تلكَ الحالة النفسـية لاقترافِ أىِّ أعمَالِ عَشْوائية غَيْرِ وَاعيَة. ومنْ هنَا أصبحَ الجميعُ يتابعونَ تطوُّرَ حَالتهــا المرضِيَّة عَن كَثَــب.. خوفًا مِــنَ الاقترابِ منهَا أوْ رُؤيتهَا.. فهِيَ تمثلُ لهُم وَحْشًا ضَاريًا.

وكمْ لاَقــى أدهم منْ مُعَاناةٍ للوصُول إلــىَ هَذَا الحَارس الــذِى عــرِفَ عنهُ أنهُ الشَــخْصُ الوحيدُ الذِى يســتطيعُ التَّحَــدث معهَا، فقد كانتْ تعليمَات المستَشــفَى صَارمة مُشــددةً بعدمِ زِيَارتهَا منَ الجمْهور، وحتــىَّ أهلهَا وَعَدم زيارتهَا إلا بتَصريح خَاصٍّ رَسْــمى مِنْ إدارةِ المستشْــفَى وَبوجُودهم.

وكانَ بِالفعلِ لاَ يُسمحُ بزيارتهَا إلا المصَوِّرونَ والمذِيعُونَ والباحثُــونَ وَالقائِمــونَ عَلى رِعَايتهــا وخدمتهَا ويدخلونَ إليها بِحراسَةٍ شديدةٍ وَمُكثفَة.

ازدادَ حجمهَا عمَّا كانت مَنْ قبلُ، وعَادت لتمنعَ رؤيتهَا منْ جديدٍ عَنْ أدهم.

وبـــذلَ أدهم قصَارى جُهده للوصُولِ إلىَ هذاَ الحَارِس، الَّــذِى أصبحَ أهمُّ شـــخصٍ فِى العالمِ الآنَ؛ لِمَـــا ينْقُله منْ أحداثٍ وأخبارٍ عَنْ أشجَان.

وَكَم احتالَ أدهم حتىَّ اسْـــتطاعَ الوُصُول إلىَ أشـــجَان مـــرةً أخرَى وعندَما فُتح البـــابُ.. جاءهَا حامِلا باقةً مِنَ الزهور يفتعلُ ويرســـمُ الابتسامَة عَلى شفتيْه.. يُجَاهدُ فِى إخفاءِ دُمُوعه.

وراحَ يرفـــعُ إليها بَصَره وَكأَنهَا لَوْحة ضخْمَة مِنْ صُنْعِ يدِ شِرِّيرةٍ عَبَثت بَجَمَالها وَحُسْنِ قَوَامهَا.

– أدهم.. هَل صَدَّقتَ مَا قِيلَ عَنى؟

وأردفـــتْ تقولُ بصـــوتٍ تقْطعـــهُ العبـــراتُ: وَأننِى مُ.. تَ.. وَ.. حِّشَةٌ؟

– أنتِ..! أنتِ يا أشجَان مُتوحشة؟ كيفَ ذاكَ والحبُّ لمْ يسكنْ قلبًا مِثلَ قلبكِ أنتِ يَا أشجَان؟.

تعاودُ سُؤاله بصوتٍ مُتقطع.

– ألا تخافُ مِنِّـــى؟ فأنَا أعاملُ مُعَاملة الحيوَان البرِّى وَحشًا ضَارِيًا؟

– أأنتِ وَحْشٌ حَيَوَانى..! وَلاَ يوجدُ فِى الدنيَا قَدْرُ عَطَائِــكِ.. ولوْ لمْ يكنْ فِى كفيْكِ سِــوَى روُحكِ لجدتِّ بِهَا لِسَائلكِ.

– أدهم إنىِّ أسْألكَ ألاَّ تشغلُ نفسَكَ بى؟

– مَنْ لى سواكِ لأنشغلَ بهِ يَا أشجَان؟

– أرجُــوكَ يَا أدهم.. أتوسَّــلُ إليكَ.. لا تعذبنِى بعذابكَ لقدْ زَهدتُّ فِى كلِّ شَــىءٍ.. ورغبتُ عَنْ أىِّ شىءٍ.. وَلمْ يعدْ لــى مطمعٌ وحلمٌ الآنَ.. ســوى المَوْت. تخيَّــلْ يَا أدهم..! عندمَا يصبحُ المــوتُ حُلمًا، وَأمَلًا.. وتضنُّ بهِ الحياةُ علىَّ. عندمَــا يصبحُ الموتُ رَحْمة.. منْ كلِّ شَــىءٍ.. منَ الحَياةِ، وَجَحيمهَا.. بِشَتَّى أشكالهَا وَألوانهَا. فهوُ الحلمُ الوحيدُ الذِى أتمنىَّ تَحْقيقَهُ الآنَ.. أمِنَ العسيرِ عَلىّ تحقِيق هَذَا الحُلْم؟!

– أشجَان.. لمْ يكنْ هذَا حُلمنَا يومًا مَا؟

– ولكنْ لم يعدْ لِى الحَق فِى سِوَاهُ بعدَ الآن، بلْ لمْ يعدْ لِى القدرَة عَلَى تخيُّلِ وتمنِّى غيرَهُ.

وأنَــا..! ألمْ تُفكرِى فِىَّ؟ ومَاذا عَسَــاى بِوسْــعِى فِعْله بدُونكِ يَا أشجَان؟

- وهلْ لي مِنْ حياةٍ معَكَ بعدَ الآن يَا أدهم؟!

صَرخَ بقوةٍ: ستعودينَ مثلمَا كُنتِ.. ستعودينَ مِنْ أجلِي أنَاَ.. وَمُستحِيل.. قاطَعتْهُ:

- لستُ الشيءَ الوحيدَ المستحِيلَ فِي هَذه الدنيا يَا أدهم، وإنمَا عِلاجِي أيضًا مُستحِيلٌ، وَحبنَا أيضًا أَصبحَ مُسْتحِيلاً.

صرخَ بعنفٍ وَصَوته تُمزقُه الدموعُ:

- كلا.. يا أشجَان.. إنِّي أَسْتحلفكِ بالرحمنِ ألاَّ تقُولي هَذهِ الأقاوِيل.. فالمحَالُ هُوَ فِرَاقنَا.. وسيظلُّ حبنَا إلىَ الأبدِ رغمَ كلِّ مَا حدثَ وَمَا يَحْدث. قالتْ بتنْهِيدةٍ طَوِيلةٍ:

- وَمَا سيَحدُث..!

ثُمَّ استمرَّت تقولُ: لقدْ فَلَتُّ مِنْ ظُلمة الرَّحِم، ولكنْ منْ يُنقذنِي مِنْ ظُلمةِ الحياةِ الآنَ. أبحثُ عنْ لحظةٍ واحدةٍ.. لحظَة رَاحةٍ.. لحظَةً يغيبُ فيهَا عَقلي.. فَلاَ أفكرُ. لحظةً يضيـــعُ فِيهَا وَعْيي.. فلا أدركُ مَا أنا فيهِ لينقذَني مِنْ هذاَ العذابِ ومِنْ هذِه الحيَاة؟

كيفَ تعذَّبينَ وأنا بجانبك يَا أشجَان؟ فمَا فائدةُ وُجُودى إذنْ فِي هذِه الدنَيا إذا لمْ أستطعْ تخفيفَ آلامكِ وأحزانكِ؟

وماذَا فِي الأمر منْ حَدثٍ؟ إنيّ لاَ أرَى هناكَ سِوَى مرضٍ وَضَخَّموه وَفعلُوا منه أسطورةً لا تُقهرُ رغمَ ضآلته أمامَ حُبّي الكبيرِ.. آه.. يَا أشَجان لوْ تعلمينَ ما أحْمِله لكِ منْ حب. لـوْ كانَ بِوُسـعِي أنْ أحملَ عنكِ مَا أنتِ فيـه ما ترددتُ لحظةً واحدةً فِي ذلك؟

– أعلمُ يا أدهَم أعلَمُ.

وأخفـتْ وجهَا بيـنَ كفيهَا لتنتحِبَ. وكَـمْ جاءتها كلماتُـه تلكَ لتلتفَّ فِي عَباءةٍ منَ الـدفءِ والحبِّ لتقيهَا بَرْد الوحدةِ القارسَ وتخففَ عنهَا هذه المأسَـاة.. وتغيبَ عن الوعي فِي سَكْرةٍ مِنَ الحبِّ لتنسَى كلَّ شيءٍ ولكنهَا لمْ ترغبْ فَي الاستسْـلام لهذا المخَدِّرِ العذب ولوْ للحظَاتِ. همَست لهُ قائلةً: إنيّ سَجينة يَا أدهم..

– وأنا مثلكِ سَـجين.. لقَد ضَاقـت الدنيا بعدكِ عَليَّ بمَا رَحُبـت.. ولكنْ عَزائي الوحيد هو الأملُ في الشـفاءِ والعلاجِ لأنكِ قطعًا سَتعالجينَ ولاَ محَالةَ فِي ذلكَ.

بكَتْ وارتفعَ عويلُها فهمسَ يقولُ: ولكنني سأظل مَعَكِ.. ولنْ أدعَ مَجالاً لليأسِ مِنْ عِلاجكِ، وكليِّ أمَلٌ فِي الشـفاءِ

ولذلكَ ستظلُّ رُؤيتكِ ومقابلتكِ تُسْعدنِى.. فأناَ سعيدٌ بكِ رغمَ كلِّ شىءٍ رغمَ العذابِ.. والسجنِ.. والإشاعاتِ.. رغمَ الحواجزِ، والقيودِ، والسُّدودِ التِى بيننَا.

– مَازلتَ شاعرًا خياليًا فأنتَ يسعدكَ الخيالُ والأملُ وأنا يشقينِى الواقعُ وَالحَقيقَةُ.

أطرقتْ بعدَ أنْ أمسكَ عن الكلامِ.. فَرأَى دموعَهَا تنحدرُ عَلىَ خديْهَا كحبَّاتِ اللُّؤلؤِ فِى سُكونٍ لتستقرَّ عَلىَ وَجنتيهِ هُوَ فقالتْ بهمسٍ تخالجُه العبراتُ:

– لا تبكِ يَا أدهم وَلاَ تخفْ.

– أخافُ الفراقَ.

– فراقَ الحياةِ أم فراقَ الموتِ.. فكلاهمَا فِرَاق.

– أمــا فراقَ الحياةِ فإننِى لاَ أخَافه.. لأنهُ لَا توجدُ قوةٌ فِــى العالم تستطيعُ أنْ تحولَ بَيْني وبينَــكِ، وَإنماَ فراقُ الموتِ، لأنه الفراقُ الوحيدُ الذِى لا حيلةَ لنَا فِيهِ.. وَلَا مَفَرَّ مِنْهُ.

وبدأ النهارُ يَسْتعدُّ للفرارِ مِنَ اللَّيلِ ليتركهَا أدهم حبيسَة الردْهــةِ والآلام.. وراحَ أدهم يناشــدُ الدهــرَ أنْ يكفَّ يَدَه

ولوْ للحظةٍ واحدةٍ عنهَا.. إذْ كَيفَ تحتمِلُ وحدَهَا كلَّ هذِه المعَاناةِ والشقاءِ.

* * *

وعـــادَ أدهم وَحيدًا.. ولأولِ مرةٍ يصبحُ الكونُ بمَا رحُبَ قبرًا.. يَضيقُ عليْهِ.. وبهِ.. لتهونَ دُنياه تحتَ قدميهَا.

وكـمْ حاولُوا - وَعبثًـا حاولوا - إقصـاءهُ عنهَا دونَ جَدوى. ولمْ يُصبحْ لهُ شـاغلٌ سِـوَى أشجَان وَكأنَّ هواهَا ألقى حجابًا عَلى عينيْهِ فلمْ يعدْ يَرَى فِي الدنيَا سِوَاهَا.

فكانَ جَوابه عَليهم كمَا يقولُ لأمه:

- دعونَا وَشَـأننَا.. فَوَ اللهِ مَا يبقَى إذَا مَا فنيتُم شيءٌ.. خَلاَ الحُبّ باقيًا.

وكانـتْ رؤياهَا تزيُده قوةً وأمـلاً.. وَعادت لتَمْلأَ دنياهُ منْ جديدٍ. وَكمْ حَاوَلت أفرادُ أُسـرتهَا زيَارتهَا لكنهَا أبَتْ رَافضـةً رُؤْيتهم.. ولمْ ترغبْ فِي رُؤيةِ أحدٍ فِي هذِه الدنيَا سِوى دُنيا وَأدهم.

فسألتْ أدهمَ أنْ يرسلَ إليهَا دنيا.

* * *

الأمومة.. سر إلهى..!

أصبحَتْ خيالًا مِنْ خَيالاتِ الوجُودِ.. شبحًا مِنَ الأشباح التِى لَا وجودَ لَهَا.. مِنْ فرطِ مَا بِهَا مِنْ حُزنٍ عَلَى حَبيبتهَا أشجَان.

وحانَ اللّقاء..

فَقَدت وحيدتهَا التِى حُرمَت مِنْ أجلهَا، وَفِى سبيلهَا، مِنْ سائرِ نِعَمِ الحيَاة.. فإذَا الحياةُ تسلبهَا كلَّ ما تبقىً لهَا.. فقد قامرَت بكلِّ ما لديهَا، فلمَّا خَسرَت خَسرَت كلَّ شيء.

وجاءتهَا تحمِلُ عرائسهَا المُتحركة، وكتبَ الأساطير والحكاياتِ، وقصصَ الأدبِ وَطَرائفه.

جذبتهَا أشجَان لتجلسَهَا عَلىَ سَاقيهَا وَتقبلها، وجَاهدت وَهِىَ تحاولُ ألا تبْكِى أمامهَا.. ولكنْ كانَ مِنَ العسير عليهَا أنْ تتَمَالك نفسهَا وَهى تراهَا بهذَا الحَال.

- أشجَان.. إش إش.. صَغيرتى، ألمْ تشتاقِى لأَصْدقائكِ.. كُوكِى يسألُ عنكِ.

وأخذ يصدرُ أصْوَاته المتَلاحقة مُهَلّلًا لرؤيَاهَا ويقفزُ مُتدرجًا بجسدهَا، حتىَ وصَلَ إلى رَأسِهَا.. يتعلَّقُ بها، يقبلهَا، يداعبهَا.

ولأولِ مرةٍ تبتســمُ أشجان بعدَ دخولهَا المسْتشفى، لقد اسْتطاعت أمهَا دنيا وحدهَا أنْ تعيدَ إليهَا ابتسامتهَا وتهدئتَها وقالت لها:

ستشفينَ وتعُودينَ مثلمَا كنتِ.. فَرَاشة، رَقيقَة، جَميلة.

امتلأتْ عيناهَا بالدمُوع فَأردفَتْ:

– صَدِّقينــي يَا صَغيرتي. سَــتعُودينَ تَرْقصينَ.. تجدينَ أدهــم فِي انتظارِكِ، فَمَا هِيَ إلاَّ أيامٌ معْدُودَات.. وَسَــتتغيرُ كلُّ هذِه الأحوَالِ الطَارئَةِ، لتعودِى مثلَمَا كُنت.

وعندئــذٍ لــنْ يســتطيعُوا حِرْمانى مِنْ حضــور حَفلاتَكِ لمشاركتكِ فِى كلِّ شــىءٍ، وَرَاحت دُنيا تعيدُ عَلى مسمعهَا صورًا مِنَ الماضِى الجميلِ، لتخففَ بِهَا وَطْءَ الحَاضرِ البشع.

وشردتْ أشــجان وهِىَ تنظرُ إلى كوُكِى وتعيدُ صورَ حياتهَا المَاضية، المَاضِى القريب.

منذُ شــهورٍ، شُــهور فقط. كانتْ كحُوريةٍ مِنْ حُورياتِ الجَنّةِ، ترقُصُ، تَجْرى، تحلقُ بَعيدًا عَنِ الدنيا.. وَراحتْ للحظَةِ تستعيدُ كلَّ هذَا بدفءِ المَاضِى وثوبِ المسْتحيلِ..

ولقاءُ أدهم.. وشــجرةُ الحبِّ.. وشَــارع الأمانِ. وَرَوْعةِ المكانِ الذِى يسيرَان فيهِ. كَمْ كانتْ أيَّام.. وقتهَا لمْ يستطعِ

الحزنُ أنْ يسلكَ طَريقًا إليهمَا يومًا مَا. فإذاَ بالحَيَاةِ وكأنهَا كانــتْ تَدَّخرُ كلَّ عذابِ الدنيَا وبلائهَا لتهديهَا إيّاه، فِي صِبَاهَا، وَفِي أجملِ فتراتِ شبابهَا.

كَمْ أســعدَهَا هذَا اللقاءُ، وبدّدَ وَحشــتهَا.. دُنيا وأدهَم بمشاركتهمَا فِي مَأساتِهَا الّتِي لاَ حيلةَ لهَا فيهَا وَلاَ شَفَاعة وَهِيَ مَرَضُهَا.

* * *

ظنَّ العلماءُ أَنَّ حالةَ أشــجَان تحسَّــنت بمُقَابلتهَا لأدهــم وَدُنيا.. وأنهَا سَتســتجيبُ للطَّعــام والتَّحَاليلِ طوعًا منهَا لا قسرًا عنهَا، إلا أنهَا ظلّت ترفضُ الطعامَ وتمتنعُ عــنِ الكلامِ طوالَ الوقــتِ.. لأنهَا غيرُ متوقعةٍ العلاجَ الشَّافِي لحالتهَا.

وَظلّتْ أشجَانُ أوقاتهَا فِي ترقُّبٍ وانتظارٍ لِلنَّهَاية، كَمَا تترقَّبُ ســاعةَ الموتِ، لتحفلَ بــه لينقذَها منْ هَذا الحمْلِ الذِي باتتْ تفقدُ قُدرتَهَا عَلىَ تَحمُّله.

كانَ القــردُ الشَّــقِي كُوكِي هُوَ الوحيدُ فِــي هَذِه المهزلَةِ والمسْرحيَّةِ التَّرَاجيديَّةِ التِي يتقاسمونَ أَدْوَارهَا رغْمًا عَنْهم.

هوَ الوحيدُ الذِى يُسْــعدهُ رُؤياهَا هَكَذا، ربمَا لغرابتهَا عَنِ الآخرينَ وربمَا لعدَم إدْرَاكه كلَّ مَا حَدث.

ذلكَ لأَنَّ كُوكِى، لاَ يَحزَن وَلا يَيْأس. مَاَ أَسْعده حَالًا بلْ مَا أسْعدَ تلكَ الكائنَاتِ التِى يبدُو لا عقلَ لهَا وَلا اخْتيَار.

لكَنْ..!!

كانتْ أشــجانُ تنظرُ إليهِ، تتابعُ تَعَجبه، تغبطهُ أشدَّ الاغتباطِ لَمَا وَهبهُ اللهُ مِنْ نِعَم لَا يدركهَا وَقَالتْ لَهُ:

– كمْ كنتُ أتمنَّى لوْ أصبحْتُ مثلكَ أنا الأُخْرى.. انظرِى يَا أمِّى الصَّغيرة كَمْ هو فرحٌ بلقائِى وَرُؤْيتِي هَكَذاَ!!

لَمْ تمضِ لحظةَ مِنْ لحظاتِ أشَــجان إلاَ وَكَانت تتمنَّى فيهَــا الموتَ والخلاَصَ مِنْ حياتهَا وســجنهَا، رحمةً بِهِمْ أيضًــا، حَتّى لَا تؤلِمُهُم، وَتُعذبهــمْ برُؤيَاهَا هكذَا فيزيدهَا عذابًا فوقَ عذابِهَا.

* * *

كَانتْ أشــجَان تُعَانى تلكَ المعَانَــاة الهَائلة التى تجدُ رغبــةً قويّة.. رغبــةً عَارمة تجتاحُهَــا للتّعبير عنهَا، بَلْ للبــوْح بهَا، وكأنَّ فِى ذَلك رَاحـــة لهَا، لتفريغِ مَا تحمِلُه مِنَ الآلامِ والشَّقَاء.

تشعرُ بحَاجةٍ مَاسّة لكتابةِ كُلِّ مَا يجتاحها وكأنَّه حِمْل ثَقيلٌ تنُوء بحمْله. فَستلْقِي هذَا العبْءَ الثَّقيل، وتلكَ المأسَاةِ الغريبةِ بمَا تحمِله مِنْ هواجِسَ وَشُكوكٍ عَنْ كاهلهَا، لتلكَ الأورَاق علّها تهدأُ وَتَسْترِيح.

* * *

عَثرُ مُصَادفةً أحدُ أعدَاءِ تَلَاميذ أنتينورى، وكانَ شديدَ العداوةِ والكرَاهيةِ لَهُ، عَلى كلِّ شَـئ فِي تجربةِ اسـتعَادة أشجَان وخروجهَا للحَياةِ مِنْ جَدِيد.. ولمَّا كانَ العَالَمُ يتابعُ حالةَ أشجان بمَا فِيهم أنتينورى، فقد رَفع الأمرَ للقضَاء.

وقامتْ وقتهَا كلٌّ مِنَ السـفارةِ المصْريّة والمكتبِ الثّقافى والاعْلامِى بنقلِ الأمرِ، وإرْسَـال كلِّ مَا يشـاعُ عَنْ تجربةِ أشجَان العلمِيّة بمستشفَى (الاستنساخ والولادة) إلى الأنباءِ المِصْرية.

وَلمْ تَمر لحظَاتٌ منذُ إعلانِ هذَا النّبَأ إلّا وَتداولتهُ جميعُ الصحُفِ ووسائلُ الإعلامِ فِى جميع أنحاءِ العالم لدرجَةِ أنْ اطلقُوا عليهَا اسمَ حَوَّاء (EVA) رمزًا لأول أنثَى مُسْتنسخة فِى العَالم.. وأولُ طفلةٍ وحَالةٍ بشريةٍ منْ نوْعهَا.

ثـارتْ بهَا الدنيَـا ولمْ تَهدَأ، وهــربَ أنتينورى مِنَ الحكْم الذِى صَدرَ بمحَاكمتهِ لتجريمهِ فِى إجراءِ تجاربَ عَلىَ الإنسانِ، وإخفَاءِ ذلكَ رغمَ التحذيرِ وإصدارِ القَوانين الصَارمَة لِمَنْ يَتَجرّأ ويفعلُ ذَلكَ. وكمْ زادَ عددُ السائحينَ الذيــنَ أتــوْا مِنْ مُختلــفِ أنحاءَ العــالمِ لِـيرَوا الطفلةَ المُســتحيلةَ، وَخاصَّة مِنْ إيطاليَا.. وقبلَ تحذيرِ الحارسِ مِــنْ إدلاَء ونقْــلِ أيّة معلُومَات لأشــجَان، كانَ قدْ قصَّ عليهَا كلَّ شئ بالتفصِيل.

لقَدْ أوصَاه أدهم بتَلبيةِ كَافةِ مُتطلبَات أشجَان، وَكانتْ أشجَانُ تطلبُ الصحفَ وسماعَ بعضِ الأخبارِ فيتسللُ إليهَا براديُو صَغيرٍ وَبالصحُفِ والمجَلاَّت الَتِي تعرضُ كلَّ شــىءٍ يحدثُ لهَا بالتفَاصِيل.

تجلسُ أشــجان.. تفتحُ الصحيفــةَ التِى نقلَت التجْربةَ بكاملِ تفاصيلهَا، بكلِّ وضُوحٍ، بلاَ بتْرٍ، وَلاَ حذْفٍ، ودونَ اختصَارٍ. كانتْ أنفاســهَا تتلَاحقُ ودموعهَا تتســابقُ وَهىَ تقرأُ أحداثَ حياتهَا الغَريبةَ.. وتهربُ السطورَ.. وتتلاحقُ وتتشَــابكُ أمامَ عينيهَا، وتمســحُ دموعهَا لتتمكّنَ مِنْ رؤيةِ

قصّة حياتهَا، لتعرفَ فَجيعة شــكوكِهَا وأنَّ مَا شعرتْ به لمْ يكــنْ باطلًا هباءً وتجنيًا. بلْ كانتْ كلُّ شــكوكَهَا فِي موقِعهَــا، وَأنّ دنيا هِــى أمهَا، فهىَ التِــى حملتهَا وَهْنًا عَلىَ وَهْنٍ، وفصالهَا ورعايتهَا وحبهَا لهَا. وَعَرفت أشجَان حقيقةَ وجودِهَا وسرَّ حَياتهَا، ومَا كانت تخفيهِ عنهَا أُمهَا وَرَاحت تغمضُ عينيهَا.

فإذَا بهَا تَرى كلَّ شــيءٍ.. أمامَهَا. وَكأنهُ يحدثُ الآنَ فقطْ. تَسْــتعيدُ اللّحظاتِ التِي كَادت تعذبهَا مِنْ قبلُ دونَ تَفْــسير، فهَا هِىَ الآنَ تعثرُ عَلى ضَالتها المنشُــودةَ والسرَّ الضائعَ، وتحلُّ اللغزَ العسيرَ الذِى طالمَا حيَّرهَا وكمْ عذبهَا طويلًا. فهــىَ بلا أَب، وَأم. كلَّا.. إنهَا ليســتْ أمهَا.. فهــىَ أُم شــقيقتهَا.. تَوْأمِهَــا الراحِلة التِــى نزعُوا منهَا الخلايَا وَاسْــتباحُوا قبرهَا، أمَّا دنيا فهىَ بِلا شَــك أمهَا ولا مَحَالةَ فِي ذلكَ. وانفردَت إحدى المجلات بنشْرِ كَافةِ التفاصِيل بمنتهَى الدقةِ والصِّدقِ، ولَمْ تكنْ أشجان وحدهَا هِــىَ التى تقرأُ كلَّ هذِه التفَاصِيل، بَلْ قرأهَا كُلٌّ مِنْ أدهم ودنيَا وَالأم ضحية.

كانتْ قصتهَا ناقصَة غيْر كَاملة ، فلمْ تكْتب المجلةُ تفاصِيل شعورهَا وَإحساسهَا ممَّا جَنتهُ مِنْ جرَّاءِ تلكَ التجربة ، ورَغبة الأم فِى أنْ تصبحَ أُمًّا بَأية وَسِيلةٍ وبأىِّ ثمنٍ.

وَرَاحت تقضِى وقتهَا كله فِى كتابةِ وسـرْدِ رسَالتهَا.. إنهَا أطولُ رسَـالة كتبتهَا فِى حَيَاتها، بلْ أطولُ رسـالةٍ كُتبتْ فِى التَّاريخ.. فهِىَ لمْ تكنْ رسَـالة وَحسْـب.. بلْ كانتْ حياتهَا كلهَا التِى كانَ لزامًا عليهَا إكمالُ مَا ينقصهَا. وأوصَت الحارسَ منذُ بدايةِ الشُّـروع فِى كتابتهَا أنْ يُسلِّمَ تلكَ الرسَالةَ لشخصٍ واحدٍ فقطْ.. هُوَ أدهم.. ليطلعَ عليهَا ويقرأ كلَّ مَا بِهَـا لتكونَ لديهِ وَحده الحكايةُ كامِلة، غيرُ ناقصَةٍ، وَلاَ مبتُورة.

* * *

وعندمَا أتتهَا دنيا سَألتهَا أشجَان:

- هلْ كنتِ تعرفينَ أننِى مُسْتنسَخَة؟

- كنتُ أعرفُ أننِى أحملُ بُويضَة ضحيَّة المخصَّبة فِى رحِمِى؛ لأنهَا لمْ تستطعْ حملَ هَذه البويضَة، وهناكَ خللٌ مَا فِى رَحمهَا يطـردُ البويضَات منهَا. وبالتالِى كانَ دورى

مُحَـــددًا وهُوَ حملُ بُويضتَهـــا المخصّبة ولكنْ لمْ أتخيلْ قَط إننـــى أحملُ بُويضَة معمليّةً مجْهولةً لامــرأةٍ غيرِهَا ومَادة وِرَاثية لِطِفلتهَا الميِّتة.

وَراحتْ تقصُّ عليهَا دنيا الحقيقةَ كاملةً. بكلِّ تفاصيلهَا المؤلمَة كمَا كانتْ تعرفهَا وكمَا صورّهَا لهَا الآخرونَ..! كمْ عدد المرّاتِ التِى نُشرَت فيهَا وَطُويت صفحَاتُ المجَلّة..؟

لَا تدرى.. كانت السطورُ تجْرِى خلفَ بعضهَا البعْض، تتسـابقُ أمامهَا بلَا رحمةٍ فلَا تستطيعُ مُلَاحقتهَا.. والدموعُ تَنســابُ علـــى وَجْنتيهَا مِنْ هَوْلِ مَا تَقْــرأ. الكلماتُ تُميط اللّثامَ عنِ الحقيقةِ المسْتوُرة.. ليرتجفَ كلُّ ما فيهـا..

وَأخيرًا حُلّت شــفرةُ حياتهَا. ولغزُ مرضهَا، وسرُّ أمهَا وغُمُوضها. كلَّا.. لمْ يفجعْهَا كلُّ مَا عَرَفت مِنْ أسرَار..

فقدْ رَوّضهَا المرضُ فأفقدهَا القدرةَ على الإحساسِ والشعور بأيةِ فَجيعةٍ أُخرى.. لتتســاوَى لديهَا كلُّ الأشــيَاء.. المرةُ والحُلوة.. لتفقدَ الإحساسَ بالحياةِ والزمنِ..!

وكيفَ تكونُ هناكَ فَجيعةٌ أوْ مُصيبة أدْهَى بَلاءً ممَّا هِىَ فيه.. فهِىَ فِى مُصيبةٍ أشدُّ وَمُصِيبةٌ أقوى مِنْ كلِّ المصَائب والنوَائب..؟

لقدِ انفرَدَ البلاءُ بِهَا، فحلَّ بِهَا وحدهَا دونَ الآخرينَ.. فأصابهَا بعللٍ لَمْ يصبْ بِهَا إنسانُ آخرُ في الوجودِ كُلِّه.

* * *

وعَادت الأُمُّ «ضحية» لترَى الأرضَ غيرَ تلكَ الأرضِ، والسَّماء وقدْ تلبدَتْ بالغُيوم القَاتِمَة، حتَّى الطَّبيعة أصبحَت صَامتــةً.. وَاجمَة.. حَزينــةً وكأنَّ الدنيَا عَادت إلى عهدهَا الأولُ لاَ يســكنهَا أحَد.. مُوحشَة، مُرعبةً، مفزعَةً، تخلُو منْ كلِّ شــئٍ إلا مِنهَــا. وَقَدْ فقدَت حَيَاتهَا بتلكَ المأْسَــاةِ القَاسِــيَة. ورغمًا عنها تعيشُ تجترُّ ذكرياتهَا مع الحرمَانِ والبحــثِ عنْ طفلةٍ تملأُ حياتهَا، فإذاَ هِيَ الآنَ تعانِي منْ جديدٍ وليتهَا وَحْدها هِــيَ التِي تُعَانى.. لكنْ يُعَانى معهَا كلُّ مَنْ فِي البيتِ، وَتُعَانى طفْلتُهَا الوليدةُ وحْدَهَا، لتحملَ علــىَ عاتقهَا وحدهَا جَنْى مَــا زرَعته فِي أرضهَا منْ زهرةٍ بريّةٍ فِي ريعَانِ شبابهَا لِتُعانى قسوةَ الحرمان.. فِي انتظارِ الموْتِ.. بلْ والبحْثُ عنه واللجُوءُ إليْه.

مُنعتْ وحُرمت أُمهَا مِنْ زيارتهَا.

وللمرةِ الثانيةِ.

تحــرمُ مِنَ ابنتِهَا، الأُولِي بعدَ دفنِهَا ورحيلِهَا والثانية بعــدَ عودتِهَا. الأولى كَانت طفلةً ميتــةً والثانية حيةً بعلةٍ مُسْتعصيةٍ ومَا عليهَا إِلَّا انتظَار الميتةِ الثانيةِ.

وصدرَ الحُكْم.. وَبَدَأت مُحَاكمتها، يُحققونَ، يبحثُونَ، يفحصُونَ، وتتذكرُ وعبثًا تتذكرُ كلَّ شيءٍ.

وَرَفضت أشجَان مُقَابلتها فهِيَ السببُ الوحيدُ لمَأساتِهَا تلكَ، فتحْقِيقًا لرغبتِهَا الحَمْقاءِ فِي الأمومَةِ أَوْدت بحياتِهَا، وَألقــت بهَا فِي ذلكَ الأُتون المسْــتَعر مــنَ المَصِير، لتلقَى حَتفهــا أيةُ مَعذرةٍ تلكَ التِي تتوســلُ بِهَــا إليهَا لتحاججَ جهلهَا بهــذَا المصِير؟ إنهَا تحدَّتْ القــدرَ، الموتَ، فماذَا جَنت الآنَ؟ ســوَى مَأســاةٍ مُتَحرّكةٍ.. يُعَانِي مِنْ قسوتِهَا آخرونَ لاَ شــأنَ لهمْ عَلى الإطلَاق، بلْ لاَ شــأنَ لهمْ بتلكَ الأمُومَة المزْعُومة التِي لا رحمةَ فِيهَا وَلاَ عَطَاء.

فقدْ كانتْ أنانية..

أخذتِ الأُم تكتبُ، تبحثُ، عَنْ أنتينورى، لكنهُ اختفَى وتركهَا لتلقَى حتفهَا وَمصيرهَا المُظلمَ وحدهَا. لمْ تَعُدْ تتذكرُ مِنْ أشــجَان سِوَى كلمةٍ واحدةٍ.. راحَت تدوّى فِي رأسِهَا

حتىَ كادَت تصمُّ أذنيهَا: أنتِ لَسْـتِ أُمىّ.. لَسْتِ أُمى.. لَسْتِ أُمّى.

لمْ تقرأ أشــجَان وحدهَا أحداثَ حياتهَا المنشورَة أكثرَ مِنْ مرةٍ، بلْ طُويت ونُشِرت أوراقُ المجلَةِ عدّةَ مراتٍ الأمّ هىَ الأخرى.

وراحَتْ تترددُ أنباءُ العَالمُ الإيطالى الذى استنسَخهَا وهُوَ يعدُ العَاجزينَ عنِ الإنجـاَبِ بتحقيقِ آمالهمْ بعدَ مَا حَقّق مُعْجِزته فِى الطفلةِ المُسْـتَحِيلة. وتردَّدَ فِى الأوسَاطِ العَدِيد مِنَ التسَاؤلات:

هَل اسْتُنسخت أشجانُ منْ طفلةٍ حيّةٍ أمْ ميتةٍ؟ واستبعدَ العلماءُ اسْتِنســاخِهَا مِنْ ميتةٍ رافضينَ هَذِه الأقاويلَ بأنهَا مُجَــرد ادعَاءاتٍ. وَدَافــعَ أنتينورى عَنْ نفسِــه بنفْى هَذِه الوَاقعــةِ إلاَّ أنَّ هذَا الأمرَ لمْ يُسَــانِده ويقــفُ مَعَهُ.. وصدرَ الحكمُ بمحَاكمتهِ لاستمْراره فى إجرَاء تجَاربة العِلميّةِ عَلىَ البشرِ. ولمْ يُعثرْ عليهِ بأىِّ حالٍ مِنَ الأحوَال.

كانَ كلُّ شئٍ مَكتوبًا بِمُنتهَى الدقّةِ والعِنَايةِ.

وأكملتْه أشجَان كالتالِى:

استنساخ الموتى..!

الوجودُ والعدمُ..
رحلةُ الحياةِ التي لاَ تخلُو لحظةً مِنْ ميلادٍ وموْتٍ..!
عُرسٌ وَتأْبِين.. لقاءٌ وودَاع.
كلنَا محْكوم عَليه.. بالإعدام بالموْتِ.. بالفَنَاء.
فِي وقتٍ غيرِ مَعْلوم.. فِي مكَانٍ غيرِ مُنتظر..
بطريقــةٍ مجْهولةٍ.. بَلْ وغيرِ مُتَوقعة أيضًا. فكانَ الحلُّ الوحيدُ أمَامنَا هُوَ البحثُ عَنِ الخلُود.
فِي دنيَا فَانية.. زَائلة. شيءٌ مريحٌ.. هوَ أنْ يبحثَ كلٌّ مِنَّا عَنْ خُلودِه، فِي ولدٍ يحملُ اسْمه، أو عملٍ يُمَجِّده.
وحبُّ الحياةِ غَريزة لا يمكنُ التخلُّص منهَا. فالحياةُ مفــردٌ مُؤنــث كالمرأة، لا تقــاومُ. تُغرِيــكَ. رغمَ المرضِ وَالكبرِ والعجْزِ. والصراعِ الدائمِ منْ أجلِ البقاءِ. إلاَّ إنهَا لاَ تقَاوَمُ.. لكنْ..!
لَــماذا تُقتلُ عمْــدًا هَذِه الأم «ضحيــة» كلَّ هَذِه المرَّاتِ؟ وكأنَّ عذابَ البشرِ كُلِّه جُمِعَ ليصبَّ فِي نهرهَا وحدهَا دونَ

سائرِ الخَلْق كانتْ فِي كلِّ مرةٍ تعودُ لترتدِي ثوبَ الصَّبْر.. قسرًا وعمدًا. لكنْ..! ثوْب الصبرِ هَذهِ المرةِ مُمزَّق بفراقهَا.. فراحَت ترقعهُ بالحُلْمِ الكبيرِ. ولكنْ حتَّى هذَا الحلْم لمْ يعدْ مِنْ حقهَا إذْ كيفَ ستَنجبُ فِي هَذَا العمرِ المُتقدم ومنْ هنَا بَدأت الحِكَاية: حكايةُ أمٍّ... رَفَضَت بإصرارٍ شديدٍ وضْع طفلتهَا الوَحيدة.. الصَّغيرة، الَّتِي لمْ تتجَاوز الثالثةَ مِنْ عمرهَا بَعْد، فِي تابوتِ المـوْتِ.. وَظلَّت تُطبق عليهَا بينَ أحضانهَا خَوفاً مِنْ هَذا الحشْـدِ الهَائل، والسَّـوَادِ الذِي ملأَ قاعَةَ البيتِ الفَسِـيحَة. وبسرعَةٍ ارتدى نساءُ الجيرانِ وَالعائلةِ وَالأقاربِ رداءَ الحفلِ الذِى سيقامُ بعدَ قليلٍ لتأْبينِ طفلتهَا الوحيدة فِي حفلِ وَدَاع.

تلكَ الحفلةُ الوحِيدةُ التِي يحددُ فيهَا لونَ الردَاء.

الكلُّ مُغَطى بالسَّوادِ.. وكلمَّا اقتربَ الأبُ «سرحان» مِنْ ضحيَّـة، ليأخذَ الطفلةَ لإعدادهَـا للدَّفنِ صَرَخَتْ وَراحَتْ تحدثهَا فِي هِيسْتريَا بَالغَة: لماذَا لا تصْرُخينَ..؟

قُولِى لَهُم إنكِ لَمْ تَموتى بعْد.. وإنكِ لنْ تتركينِى وحْدِى فِـى هَذِه الدنيا. وَراحت تـدورُ فِى أرجاءِ غرفَةِ النوم بينَ

المقربينَ مِنْ أخواتِهَا وزوجِهَا مُتسَائلةً: أتســمعونَ بكاءهَا، هِيَ هَكذا دائمًا، لا تكفُّ عنِ البكاءِ والصُّرَاخ.

تضمهَا لأقصَى مَا تَستطيعُ وَهيَ تقولُ لهَا: إنيِّ بجَانبك يَا حَبيبتي، ولنْ أتركَكِ أبدًا ولَنْ يأخذكِ أحدٌ منيّ.

كَــمْ مرَّ عليَهَا مِــنَ الوقتِ هَكَذا وهيَ تحــاولُ إقْنَاعهم بأنهَا ليسَــت مَيتةً وأنهَا مَازَالت تَعِيش، والجميعُ يحاولُ نَزْع الطفْلةِ منْ بــينِ ذرَاعيْهَا إلَّا أنها كانتْ تقاومُ بحيثُ لمْ يستطيعُوا نزعَهَا مِنْهَا.

سَــارُوا بِهَا إلىَ طريقِ المقبرةِ، وَهِيَ لا تزالُ تحملهَا بينَ أحْضَانها. وسَارت السياراتُ الواحدةُ تِلْوَ الأُخرى، تحملُ الكثيرَ مِنَ الناسِ، مِنهم مَنْ تعرفِهُم ومنهُمْ مَنْ لاَ تعرفُهم. كانــتْ عيناهَا تحدِّقَــان طوَالَ الوقتِ باندهَــاشٍ بينَ هَذا وذاكَ وكأنهَا تقولُ لَهُمْ:

– مَــاذَا بِكُمْ؟ ولمَاذا كلُّ هَذا الحشْــد الهَائلِ؟ وَإلى أينَ المَسِير؟ مَا لهذِه الزفَّةِ الوَاجمَة المُوحِشة؟

الجميعُ فِي صمْتٍ حَتَّى هِيَ. وبينَما وَصَلت السيارةُ إلىَ أوَّلِ طريقِ المقابرِ. كانَ طَريقا موُحشا.. لاَ يَسْكنه سوَى الأموَات.

فلماذَا يأتونَ بِهَا إلى هُنَا؟

وتتلفتُ يمينًا وشمَالاً.. وعيناهَا الحَائرتانِ تُفتشَــانِ فِي وُجُوههم عَنْ إجابةٍ. الجميعُ صَامت.. سَاكن.. لَمْ يكنْ هناكَ مَارَّة أو سَــائرونَ. المكانُ خالٍ تمامًا مِنْ كلِّ الأحيَاءِ، لكنهُ مَليءٌ بالجُثثِ المدْفُونة. وَأحَسّـتْ أنَّ أشباحَ الموتَى ستطبقُ عَلى أنفاسِــهَا، فصَرخَتْ بفزعٍ وهُم يمنعُونهَا الخُرُوجَ مِنَ السّــيارَة، وأمسَــكَ بهَا اثنتانِ مِنْ أخوَاتِهَا، ومنعتاهَا مِنَ النــزولِ مَعَهُمْ، وقَــدْ مَلأ صراخُهَا أصداءَ المــكانِ، إلاَّ إنَّ ذلكَ لمْ يمنعهمْ مِنَ اســتخدَام القوةِ فِي منعهَا مِنَ النزولِ، ونزعُوا الطفلةَ مِنْ بينِ ذراعيْهَا بِمَشقَّةٍ هَائِلَة، وذهبَ بَاقِي الحشْدِ لدفنهَا فِي المقبرةِ التِي أعداهَا مِنْ أجلهِمَا، ولكنهَا سبقتهمَا إليهَا لتسكنهَا وَحْدهَا.

تعَالتْ صَرخاتهَا: لاتتركوهَا وحدهَا فِي هذَا المكانِ الموحشِ، فهِي صَغيرةٌ ولَنْ تســتطيعَ البقاءَ وحدهَا. وبعدَ مُعاناةٍ شديدةٍ تسمَّرتْ عيناهَا وهُمْ يُغلقونَ دونهَا نافذَةَ القبرِ.

هالهَــا الرعبُ وهم يغلقــونَ المقــبرةَ، ورَاحَت تتخيلُ طفلتهَا الجميلةَ وســطَ الغرفةِ الموحشَــة.. فصرخَتْ وَهِيَ

تَراهم يعودُون دُونهَا، وَعلت صرخاتُهَا وَمَلأت المكَان بعدَ أنْ حالوُا بينهَا وبينَ الحيَاةِ.

وبمجردِ أنْ ركـبَ بجوارهَا زوجُهَا غَابت عَنِ الوعْي، وَلمْ تشـعرْ بذاتهَـا إلا وَهِيَ عَلىَ فراشِـهَا.. كلمَا فتحَت أهدابهَا أبصرَت أناسًا غيرَ هؤلاءِ الذينَ رَأتهم مِنْ قَبْل.

ربمَا غُربَاء.. أو أقربَاء.. لكنهمْ كثيرونَ. تبحَث نظراتُهَا عَنْ طفلتهَا وَسطهم، وعندَما تفشَلُ فِي العثورِ عليهَا تغيبُ مرةً أُخرَى عَنِ الوعْيِ، فِي سُباتٍ عميقٍ لتنفصِلَ عَن الواقع الأليمِ كَمْ مرَّ عليهَا منَ الوقتِ وهى عَلى هَذِه الحَالةِ؟

ربمَا سَاعَات وَأيامٍ وربمَا شُهورٌ وَأعوَام.. دُونَ جَدْوى.. حَتَى كادتْ تفقدُ بصرَهَا بكاءً عليهَا.

* * *

تعودتْ ألاَّ تبرحَ فراشَـهَا إلاَّ فِي أشدِ الحَاجةِ، ولكنهَا نَهضَـتْ مِنْ رَقدتهَا تسـيرُ فِي الغرفـةِ وكأنَّ كلَّ ما فيهَا غَريب عليهَا.

أصبحَـت لا تألفُ شـيئًا فِي هَذَا المكانِ، وَقفت تشـدُّ ستائرَ الشُرفة ورَاحتْ تنظُرُ إلى المَارةِ بألمٍ وحزنٍ، ثُمَّ عَادت

إلى فِرَاشــها فوجدَت الصحِيفةَ اليوميّةَ بجوَار الفرَاش فوقَ «الكُومُودِينــوُ» ، فراحَت تتصفحهَــا دونَ اكتراثٍ ، وَفجَأةً فتحَت عينيهَا لأقصَى مَا تَستطِيعُ وَهِىَ تقرَأُ عنوانًا :

«أبو الأطفال المســتحيلين».. طبيــبٌ إيطَالى ينجحُ فِى إعادة الأملِ للنساءِ المُسِنَّاتِ، ومرضَى العُقم، وَسِنِّ اليأس.. حيثُ اسـتطَاعت سيدةٌ فِى الستينَ مِنْ عُمرِهَا إنجابَ طفلٍ بعدَ زِرَاعته بُويضَة فِى رَحِمهَا.

وتحرَّكــت نظرَاتُ ضحية لتعيدَ مَا قرأته باندهَاشٍ مرَّة أُخرىَ.. وبسرعَةِ البرقِ لعَت مئاتُ الأفكارِ فِى رأسهَا فِى وقــتٍ وَاحِد، وكمْ تمنىَ زوجُهَــا عودتها إلىَ طبيعتهَا بعدَ فقدانِهَا طفلتهَا الوَحِيدة.. وبالقطْعِ لنْ يُرْفض طَلبهَا هَذَا، ظَلَّت تنادِى عَليه:

فأســرعَ إليهَــا يملؤهَا الفرحُ والبهجةُ، فهوَ لمْ يســمعْ صوتَهَا منذُ أمدٍ طويلٍ، فَسَــألته بتلطُّفٍ وَدعَةٍ وَهِىَ تُعْطيهِ الصَّحِيفةَ ليقرَأ:

بِالطَّبع كانَ يعلمُ جيدًا مَا يُؤلمهَا، وَقرأَ الخبرَ ونظرَ إليهَا فراحَت تحثّهُ علــى إتمامهِ. وعندمَا انتهَــى مِنْ قِرَاءته،

لمْ يتردّدْ لحْظةً فِي قبولِ رَغبتهَا التِي لمْ تفصحْ عنهَا بعْد، بالسَّفرِ إلى إيطاليَا.

– ضحية..

لمَاذَا لا تنسينَ، وتهدئينَ. ألستُ بجَانبكِ؟ كلُّ الجراح تلتئمُ يَا حَبيبتِي.

– إلاَّ جُرْحِي أنا. سيظلُّ ينزفُ مَا حَييتُ. إنَّها بعضٌ منِّي، فَأَنَا تَائهَة بدونهَا، ولا أجدُ سـببًا لوجُودِي الآن. فَلمَاذَا أَحْيَا إذنْ؟

– مـنْ أجلِي أنا.. لقدْ كُنَّا سُـعداء قبلَ إنجابهَا فلماذَا لَا تعودينَ مثلمَا كنتِ؟

– كانتِ الحبّ الكبيرُ فِي حَيَاتِي.

ابتلعتْ دموعَها.. وخرجَا يملؤهُمَا التفاؤلُ بعدَ أنْ حدَّدَ الطبيبُ الإيطـالِيُّ موعدَ زراعةِ البويضَة بعـدَ إجراءِ كَافَّةِ التحاليـلِ اللاَّزمةِ لذلكَ. مضتْ خمسـةُ أيـام بعدَ زراعةِ البويضَة الغريبةِ عنهَا، تحتَ الفَحصِ وَالتحالِيلِ.

كانتْ قلقـةً أكثرَ ممَّا يجبُ. وكمْ عددَ البويضَات التِي تمَّ زراعتهَا فيهَا دونَ جدوَى، رغمَ ارتفاع سِـعرهَا الباهِظ

إلاّ أنها سرعانَ مَا تسقطُ رافضَةً هذَا الرَّحم المسنَّ الغريب سكنًا لهَا. وَفِي كلِّ مرةٍ تفشلُ فيهَا زراعة بُويضةٍ تُذْبحُ فيهَا أحلامُهَا، وتراقُ دماؤهَا كمدًا وحزنًا علَى ذلكَ.. وللمرةِ الثانيةِ تُعَاود غرفتهَا فِي الفندقِ معَ زوجهَا تجرُّ أذيالَ حَسْرتهَا، وتعاودُهَا ذِكرَى طفلتهَا الرَّاحلة.

كانتْ تخفِي دموعَهَا بوسَادتهَا حتَّى لا يشعرُ بنحيبهَا، ولكنهُ سرعانَ ما يكتشفُ ذلكَ. وعبثًا يُحاولُ تهدئتهَا دونَ جدْوى. وقررَا العودَةَ. إذْ ليسَ هناكَ مَا يدعُو لاستمرارهَا فِي رُومَا، وبعدَ أنْ حجزا تَذْكرتَي العودَة تدخلُ عليهَا مُضيفةُ الفندقِ للمرةِ الثانيةِ، فتجدهَا عابسةً مُتجهمَةً وهِيَ تقصُّ عليهَا سرَّ تعاستهَا فتقولُ لهَا بالإنجليزيّة:

– كيفَ لمْ يستَطِع أنتينوري وَهُوَ يفعلُ المستحيلَ، فهوَ أعلنَ منذُ فترةٍ عنْ قدرتهِ علَى استنسَاخِ بشرٍ. ليسَ ذلكَ فحَسْب، بلْ واستنسَاخ الموتَى أيضًا؟!

هَللَت مِنْ أعماقِهَا فرحَة مُستبشرةً، تمسكهَا منْ كفيهَا وتدورُ بهَا وسطَ الغرفةِ وهِيَ تقولُ: أعيدِي عليَّ مَا قلتهِ منْ فضلكِ، أحقًا مَا سمعتُ!! يستنسخُ الموتَى، ويعيدُهُم إلى الحياةِ، يَا إلهِي مَا أسعدنِي حَظًا بمَا قلتهِ.

وأغرتهَا الفكرةُ.

اللعبةُ الجديدةُ، والكوميديَا العلْمية، وبَدا لهَا هذَا العَالمُ وَكأنه سَاحر، عجيبٌ، سَيحيلُ حلمهَا إلىَ حَقيقَة، لتكونَ نهايةَ عَذابَها عَلىَ يَديهِ هُوَ. ثمَّ أجلستهَا أمامهَا لتقصَّ عليهَا كلَّ شيءٍ بالتفصِيلِ. فقالتْ المُضِيفة:

- هذَا العالمُ تمَّ حَبْسُه، وإغلاقُ المستشفَى الخاصّ بِهِ «الاستنسَاخ والولادة» وعندمَا حاولَ استنسَاخَ بشرٍ وأعلنَ عنْ وجودِ بُويضَات مُخصبَة صِنَاعيًا، ويمكنُ زراعتهَا فِي النساءِ، كانَ الأمرُ عندئذٍ هَينًا مِنَ الممْكنِ قُبوله أمَّا عندمَا أعلنَ عَنْ محَاولاتهِ فِي استنساخ بشرٍ منْ خَلايَا جَسَديَة، كانَ الأمرُ مُريبًا بلْ وَمِنَ العسيرِ قُبوله بأيِّ حالٍ منَ الأحوالِ؛ لتجريمِ وحظرِ إجرَاء التجاربِ العلمّية عَلى الإنسَان.

وَحاوَلُوا مَنْعه ومحَاكمته وَدَافع عنْ نَفسِه بقوله:

إنَّ المُسْتنسخَ سيكونُ مِنْ خلايَا أَحَد الأبويْن فَلَا يعدُ هناكَ أيُّ خلطٍ للأنسَاب. وَإنمَا هِيَ مُجرد وَسيلةٍ لعلاجِ العقمِ المصَاب به أحدهمَا. لكنْ سرعَانَ مَا تسَربَت الأقاويل

والإشـــاعَاتُ عَنْ مُحَاولاته فِي استنسَاخ الموتى. وعندئذٍ تمَّ إغلاقِ المستشـَـفى وَتقديمهِ للمَحَاكَمَة. لكنْ يُشاع الآنَ أنه يبحَث فِي هذهِ التجارب سِرًّا وَلمْ يتخلَّ عَنها بعْد، ولكنهُ دائمًا تحتَ المُرَاقبة. وتمَّ طَرْده مِنَ الجامعَةِ، وبدأَ يستعيدُ عملهُ فِي عيادةٍ صغيرةٍ أسسهَا هُوَ وزوْجتُهُ، وَذاعَت شهرتُهُ بعلاج الكثيرِ منْ حالات العقْم.

لـمْ تَنتبه ضحية لِكلِّ هذِه التفاصيل، ولمْ تسـمعْ سِوىَ جملـةٍ واحــدةٍ تَوقَّفَ سمعهَــا عندهَا «استنسَــاخُ الموتَى» وَإعَادتها منْ جديدٍ إلى الحيَاةِ. كانتْ تترددُ عَلىَ مَسْمعهَا دونَ ســائرِ التفاصيلِ الأُخْرَى.

دخلَ زوجُهَا وَقبْل أنْ يسألهَا:

– قالت كطفلةٍ تتشبَّثُ بلعبتهَا الجَديدَةِ:

مَــاذَا تفعلُ لوْ عَرفتَ أنَّ فقيدتنَا، طفلتنَا الوحيدةَ، منَ الممكنِ أنْ تعودَ إلينَا؟

رَدَّد بفــزع ظنًّــا منهُ أنَّه قَدْ أصابهَا مَسٌّ منَ الشــيطانِ فَراحت تتخَــبَّطُ فِي رَغباتهَا وَآمالهَا:

– تعودُ إلينَا؟ وقدْ مَاتت ! !

– لماذَا تنظرُ إلىَّ هكذَا، لستُ مَجْنونةً يَا حَبيبى..

– إذنْ أنَـا الـذِى جننتُ، عندَمَـا أتيتُ بكِ إلى هنَـا وطاوَعْتك.

– كلَّا يَا حبيبِى، لقدْ أحْسـنتَ فِعْلًا، ولَكنْ تَصَوَّر أنه يمكنُ استنساخُ طفلتنَا وإعَادتهَا إلى الحيَاةِ منْ جديدٍ!!

أرجـوكَ يَـا حبيبى الغِ تذاكِـرَ العودةِ فعلينَـا مُقابلةَ الطبيـب مرةً أخرَى.. وَعرْض الموضُـوع عَليه، فإقناعه لنْ يكونَ سَهْلًا، لأنهُ يفعلُ ذلكَ سِرًّا، وَمُهمتك إقناعه بشتَّى الطرقِ ولوْ بلغَ الأمرُ أنْ تعطيه كلَّ ثروتنَا مُقابل ذلك، فكلُّ شئٍ يهونُ فِى سبيلِ إعادتهَا إلىّ مَرَّة أُخْرَى.

وَبـدتْ لهُ زوجتُـه مُغرمَة بالفكرةِ والمغامـرَة، أكثر مِنْ رغبتهَا فِى طفلتهَا ومَا عليهِ إلَّا تحْقيق مَا تصبُو إليهِ حتَّى ولوْ كانَ شططًا.

قال الطبيب الإيطالى:

– مِنَ الممكنِ طبعًا إجرَاء اسْتنسَـاخٍ مِنْ أىَّ منكمَا بنزْعِ خليَّة جسدية كاملة العدد الكروموسومى (المادة الوراثية)، ولكنْ سـتقابلنَا ذاتُ المشكلةِ، ولكنْ حتَّى هَذِه المُشكلةِ مِنَ

المكــنِ حلهَــا بزرَاعةِ هذه الخلية فى بويضَــة مُفْرغة مِنْ مَادتهَا الوراثيَّة الأصْلية وَالتِى تزرعُ بدورها فِى رَحِم امرأة أخرَى بَدِيلة، لتكونَ بمثابةِ حَضَّانةٍ للجنينِ، وليسَ هناك مَا يدعُو فِى حَالتكِ للمغامرةِ باستنسَاخِ الطفلةِ الميِّتة.

– أليسَ بمقدوركَ إعَادة طفلتِى؟ فأنا أريدهَا هِىَ.. هِىَ وَحَسْب.. فلماذَا تأخذُ مِنْ خلايانَا إذَا كانَ مِنَ الممكنِ أخْذ خلايَاهَا هِىَ، لإعادتهَا هِىَ، هِىَ عَلى وجْهِ التحديدِ دونَ غيرهَا، لماذَا لَا تنقذُ امرأةً شَقِيّةً مِثلى، أرجُوك يَا دكتور، أتوسَّلُ إليكَ.

– إنهَا مُخَاطرة.

– لكنهَا ستنجحُ. قطعًا ستنجَحُ لأنَّكَ طَبيب نَاجح...!

* * *

الطفلة حواء (EVA) المستنسخة..!

كانَ وَاجمًا طوالَ الطريقِ حَتَّى فزعَ فِي وجهها:

- مُستحيل مُشاركتك فِي هذِه المهزلةِ.

- أيةَ مهزلةٍ تلكَ التي تتحدثُ عنهَا؟

- أتظنــينَ أننِي ســأظلُّ أُلبِّي رَغباتــكِ تلكَ بدونِ تَفْكــيرٍ؟ مَــاذا بكِ؟ بلْ مــاذَا دَهَــاكِ؟ إنَّ رغبتكِ فِي الأمومــةِ تجعلكِ تقولينَ شــططًا، وترغبــينَ عجبًا، استنسَاخ ابنتنَا الميِّتة!! لمَاذَا؟ لسنَا أوّل، ولا آخرَ منْ تموتُ طفلتهمَا الوَحيدة!!

- لكننِــي الأمُّ التِــي ثَكِلت ابنتهَا ولنْ تُنجب ســواهَا أبدًا.. فأنتَ لا تشــعرُ بِي، فقلبِي يحــترقُ بفراقهَا، وَلنْ أستطيعَ تعويضَها.

وراحتْ تنتحبُ وارتفعَ عويلُها ليملأ كلَّ شــيءٍ حَوْله فعادَ يُهدئُهَا قائلًا:

- يَــا حَبيبتي، كلُّ نــارٍ، تهدأُ لتصبح رمَــادًا، ومنَ المستحيل أنْ تظلِّي هكَذا.

– لكنَّ نارَ فراقِهَا ستظَلُّ مُشتعلة لتأكلَ كلَّ مَا تبقىَ لِي فِي هذِه الدنيَا، حَتىَّ ألحقَ بِهَا.

وارتفعَ صوتُ بكائهَا، فاقتربَ منهَا قائلًا:

– اهدئِي يَا حبيبتِي، وافعلِي مَا تشائينَ.

ومسحَ دموعَهَا ثم راحَ كعادتهِ يداعبهَا قائلًا:

– ألا تريْنَ أننَا لأولِ مَرة ننزلُ رومَا، فهيَّا بنَا نتنزهُ فِي شوارعهَا، علَّكِ تَنْسِينَ قليلًا، أوْ تهدَئِينَ.

أسرعَت مُهرولة إلىَ فراشهَا قَائلة:

– كلَّا، لا أستطيعُ، فأنَا أستعجلُ الغَدَ، حتَّى أقابلَ الدكتور أنتينورى و..

قاطعهَا مُتعجبًا:

– لكن السَّاعة لا تزالُ الخامسةَ مساءً.

تثاقلتْ قَائلة:

– كَمْ يمضِي الوقتُ بطيئًا، لكننِي سأحاولُ النومَ الآنَ حتَّى أتعجلَ الغدَ، ولَا أريدُ أنْ استيقظَ إلاَّ غدًا.

ثُمَّ تحرَّكت عيناهَا الحائرتَانِ يَمينًا وشمالًا تَسْأله:

– أتظـنُّ أنــه سَـيرَفُض؟ يجيبهَـا بثقـةٍ وســخريةٍ كعادتهِ المعْهودة:

– يرفـضُ! يرفـضُ فرصَة جَاءتــه دونَ كَدٍّ أوْ بحْث، تَجْربه سَيتقاضَى عنهَا أجْرًا.

وعَاشــتْ ســاعاتهَا تلكَ فِي صراعٍ مــعَ الزمنِ، ما بينَ الأملِ والرجَاء.

وراحَت تتخيلُ طفلتهَا الوَحِيدة، تداعبهَا، تلاحقهَا، لتحــركَ المياهَ السَّــاكنةَ الرَّاكدةَ فِي بركتهَــا لتبعَث فيهَا الحياةَ مِنْ جديد.

* * *

دخلَ أنتينــورى وزوجتُهُ المعملَ، بعدَ أنْ قصَّ عليهَا كلَّ شــيءٍ، فهيَ تُشَــاركه فِــي كلِّ شــيءٍ، أخرجَت زوجَتــهُ مِلفًا جَدِيدًا مِنْ أحدِ أدراجِ طَاولة المعملِ الطَّويلة والممتــدةِ بطولِ الغُرفة، وكتبتْ عنوانًا وبيَانَاتٍ وَتاريخَ: «إيفا المِصْرية حَوّاء ٢٠٠٠».

وراحَتْ تنقلُ وتدوِّنُ ســائرَ التجاربِ السَّــابقةِ، الَّتِي أُجريتْ مِنْ قبلُ لاستنسَاخِ البشرِ مِنْ عِظَامِ الموْتى، والخلايَا

المُخزَّنةِ فى بنوكِ الأجنة والأعضاءِ وغيرهَا. كانتْ هذِه هِىَ المحَاولةُ رقم أربعمائة بعدَ الألفِ فِى حالاتِ الموتى وَطَوت الملَفَّ فرحةَ مُسْتبشرة وتوجَّهَت إلى أنتينورى قائلةً:

- هَلَّ حددتَّ موعدَ السفرِ إلى القاهرةِ لنزْع العينَاتِ؟

- إننِى سَأسافرُ وأعودُ فِى ذاتِ اليوم قَدرَ إمكانِى.

وَلفَّت ذراعهَا حَوْله وهىَ تقولُ:

- كَـمْ أنا مُتفائلة لهــذِه التجربَة يَـا أنتينورى، إنهَا ستجعلُ للمَوْت علاجًا.

- بلْ سـيكونُ المـوتُ مُجردَ مرْحلةِ انتقالٍ منْ جسـدٍ لآخرَ، ليتحقَّقَ حلمُ الأبديَّة.

وَغادرَ الثلاثةُ إيطاليا سَـويًّا، عَلى أن يعودَ هو بمفرِدِه حتَّى يتمَّ إعدادُ وتجهيزُ المادَّة الورَاثية وزرْعهَا فى إحدَى البويضَـات المجمَّـدةَ بعـدَ تفريغهَا من مادتهـا الوراثية الأصلية وتوفيرِ الأنثـى البديلةِ لحمْل البويضَة بعدَ إجراءِ جميع التحاليلِ والفحوصِ عليهَا والاتفاقِ معهَا. وَحذَّرهم بشـدةٍ لخطورَةِ الأمرِ وعدمِ اطلاع أىِّ أحدِ عَلى هذَا السِّـر وَتلكَ التجْربة.

وبــدونِ تــرُّدد أو خوفٍ قَبلت المغَامــرَة.. فِي غَايةٍ مِنَ السَّــرِّية.. فالأمرُ بحاجةٍ إلى فتــح قَبْر الطفلةِ وعزْلِ المادَّةِ الوراثيةِ منهَا. مــرةً أُخْرى.. دَاعبتِ الأيامُ الأمَّ، ولوَّحَت لهَا بإشــارَةٍ.. مُجَرد إشــارةٍ بعودةِ طِفلتهَا لتشــرقَ شمسُ حياتهَا مِنْ جَدِيد.

* * *

كانــتْ فِي كلِّ خطوةٍ عذاب دُونهُ عذابُ جهنَّمَ. هكذَا قُــدر لهَا وحدهَــا، أَنْ تعانِيَ مثلَ هَــذِه المعَانَاة، وكأنهَا الضَّريبةَ الفادِحَة لأحلامهَا الغَريبة.

فقدْرَمَا نُحقق مِنَ أحلام قدرَ تَضْحياتنَا وَدفْع مُقَابل مَا نتمنَّى.. ولكنْ هــلْ رَغبتهَا تلكَ فِي الأمومَةِ كَانتْ مُجرد حُلم جميلٍ تسـعـى لتحْقيقِهِ، أمْ كَانتْ رَغبةٍ شَــيْطانيةٍ تملكتهَــا، فَرَاحــت تعبثُ بِهَا لتحطِّمَ فِي ســبيلهَا كلَّ شــيءٍ، مِنْ حواجــزَ وموانعَ وقيــودٍ. هَلْ تدفــعُ الغرائزُ والأنانيةُ الإنســانَ للتضْحِيةِ بكلِّ شيءٍ فِي سبيل تحقيقِ مَا يَرْغب، نَاســيًا، متجاهلًا الدِّينَ، العرفَ، المجتمعَ، القيمَ والناسَ؟!

وانبعثــتْ رَائِحــةُ الأمواتِ مِنْ بينِ القبــورِ، لتثِيرَ فِى نفسهَا الرعبَ والذعرَ مِنْ جَديد.

تُحيطهَا الأشـــباحُ مِنْ كلِّ جانبٍ، وَالخَرابُ والترابُ، وعواءُ الذئابِ ومواءُ القطَطِ. وَمِنْ بينِ كلِّ هؤلاءِ كانَ صراخُ طفلتهَــا يدَوِّى، يُنَادِيهَا. لقدْ جفَّــت عيناهَا مِنَ الدموعِ، وَلمْ يبقَ بعينيهَا مَا يعينهَــا عَلىَ الحزن ويريحهَا مِن هذَا القــدرِ الهائلِ مِنَ العذابِ. وكيفَ اســتطاعَ الــزوجُ إقناعَ حارسِ القبورِ بفتْحِ المقبرَة، زَاعِمَا أنَّ هناكَ سِحْرًا، وعَملًا مدفونًا وَلإبْطالِهِ لابدَّ مِنْ أخذِ شىءٍ مَا مِنْ جُثة الطفلةِ.

* * *

وَفُتحــتِ المقبرةُ.. للمرةِ الثانيةِ.. لكنْ هذِه المرةُ لمْ يكن الوقــتُ نهارًا ونزلَ الحارسُ، وَصَعــدَ حاملًا جثةَ الطفلةِ فهىَ الجثةُ الوحيدةُ الراقدةُ فِى تلكَ المقبرَة.

وقامَ أنتينورى بنزْعِ عــدةِ عيناتٍ وقطع دقيقةٍ مُختلفةٍ مِنْ عظــامِ الطفلةِ وبقَايَا مِنْ أعضَائها المُختلفةِ، ثمَّ وَضْعهَا فِــى أنابيبَ دَقيقَةِ الحجْمِ، بعــدَ أنْ كَتبَ عليهَا بياناتٍ ورُمــوزًا وحروفًا خَاصَّة بهَا، ثمَّ أعادَ الحارسُ جثةَ الطفلةِ

لموضعهَا لترقدَ منْ جديدٍ وسطَ المقبرةِ المظلمة وخرجَ الثلاثةُ، وَاجمينَ، خَائِفِينَ، بلْ ويملؤُهُم الذعرُ والفزعُ.

أتراهُ فزعُ القبورِ؟ أمْ فزعُ الموتِ وَفكرتهِ؟

وعَادتِ الأم مِنْ جديدٍ، لتعيشَ لحظةَ دفْنِ طفلتهَا مرةً أُخْرى، وكأنهَا فقدتهَا الآنَ. الآنَ فقطْ، وَقَدْ تركتهَا وحدهَا فِي الظلامِ الدامسِ، وسطَ - المقبرَةِ - الغرفةِ المُوحشَة.

وَارْتعدَت..

يجرهَا زوجُهَا منْ ذراعهَا جرًّا.. فتسـيُر معهُ تائهَةَ الفكرِ، شـاردَةَ الذهنِ، خَائفةً، مذعُورةً، وَكأنهَـا فِي عَالم غيرِ ذاكَ العالم الذِى نحْيَاه. كانتْ لا تبرحُ غُرفتهَا.. واجمةً، شَاردَةً.

تَجْلسُ فِي مَقعدَها الوثيرِ المعتادِ بجوارِ الهاتف. مُنتظرةً مِـنْ حينٍ لآخرَ اتصَال أنتينورى ليخبرهَـا بأَنَّهُ تَمَّ العثورُ عَلىَ المرأةِ البديلةِ التِى سيزرعُ فيهَا البويضَةَ الحاملة للمادَّةِ الوراثيةِ للطفلةِ المَيِّتَةِ.

وبعدَ أسـبوعٍ مِنَ الانتظارِ، دَقَّ جـرسُ الهاتِف ليزفَّ إليهَا خبرَ العثـورِ علىَ دنيا «الأم البديلَة»، وَأنَّهُ لابدَّ مِنَ السفرِ لتوقيعِ العقدِ بينهمَا.

كانَ لَا شــيءَ يعيــدُ إليهَــا فكرهَا وتركيزهَــا، إلَا كلَ مَا يتعلَّقُ بعودةِ طفلتهَا للحَيَاة.

وَكانَ أنتينــورى وزوجتُــهُ لا يَقِلان حرصًــا وطمعًا فِى نجــاحِ التجربــةِ عنهَا فهِىَ تجربــةُ حَيَاتــه وَحُلمه فِى تحقيقِ الأبديَّةِ، وهِىَ حُلم حياتهَا فى تحقيقِ غَريزتهَا فِى الأُمومةِ.. فكلاهمَا حريصٌ عَلىَ إتمامهَا.

عرضَ أنتينورى عليهَا صُورةَ الأم البديلةِ التِى سَتحملُ البويضَةَ - أى الجنينِ مُستقبلًا - وَقرأَ بياناتهَا:- اسمهَا دنيا.

- عُمرها الخامسَة بعدَ العشرينَ عامًا.

- مُولعة بالسفَرِ. غيرُ متزوجَة.

ثم نزَعَ صُورة مِن الملفِ وعرضهَا عَلَى الأم وهُوَ يقولُ:- هَا هِىَ.. تلكَ صُورتهَا.

جذبتهَــا الأمُّ ويدَاهَا ترتعشَــانِ. ثُمَّ خطفهَا مِنهَا العالمْ وهُوَ يقولُ:

- أينَ صورَ الطفلةِ الميتة، أريدُ بعضَ صُورهَا المخْتلفة.

فتحتِ الأمُّ حقيبةَ يدهَا وأخرجَت منهَا حَافظَةَ جِلْديةً

صَغِيرةً بهَا الكثيرُ مِنْ صورِ طفلتهَا الرَّاحلةِ، فاختَارَ العالمُ منهَا خمسَ صورٍ مُختلفةٍ.

ثمُّ نَهضَ واقفًا وأردفَ يقولُ:

- والآنَ تستطِيعَانِ العَوْدة إلى الفندقِ لتستريحَا من السفرِ ولتهدئي يَا سيدتِي، وكلُّ شيءٍ سيكونُ على مَا يُرَام، ولتكونِي هنا فِي الغدِ فِي تمامِ الثامنةِ صبَاحًا لتوقيعِ العقدِ وَدَفْعِ المُقَابِل.

- كَمْ يبلغُ المبلغُ المطلوبُ كَمُقَدم؟

- فِي الواقعِ، طَلبت الفتاةُ عشرينَ ألفِ دولارٍ، كَاملا.

اتسعتْ عينَا الزوجِ لأقصَى مَا يَسْتطيعُ.. فنظرَت إليهِ زوجتُهُ بتوسُّل ألَّا يرفُضَ وَيخيبَ رجاءهَا.. فابتلعَ غضَبهُ لمارسةِ تلكَ الحماقةِ التِي سيفقدُ فيهَا كلَّ رَأسمالهِ فِي الحياةِ إرضَاءً لهَا.

كانتْ تشعرُ أنَّ الحياةَ بكلِّ مَا فيهَا، مِنْ أموالٍ لا تعادلُ عَوْدة طفلتهَا إلى الحيَاة، فكلُّ شيءٍ يهونُ مِنْ أجلهَا، ولأولِ مرةٍ تتحدثُ ضحية بشيءٍ منَ اللهفةِ والأملِ، فمَا هِيَ

إلا شـــهورٌ مَعدودَات وَستولدُ ابنتهَا مِنْ جديدٍ، حبيبتهَا، وقَرَة عينهَا.

دخلتِ المعمَل. وجدَت فتاةً شقراءَ تجلسُ بثقةٍ وهدوءٍ، وبمجرّدِ نَظْرةٍ خَاطفةٍ عَرَفتهَا.. فقدْ رأَتْ صُورتهَا بالأمس.. فكيفَ تنســاهَا وَقد انطبعَتْ ملامحُهَا فِي ذاكرتهَا بمجردِ مَا وقعتْ عيناهَا عَلى صُورتهَا.

فابتسمَت.. لكنْ مَا بالهَا لَا تبادلهَا الابتسَام. كانتْ فَاترة، ويبدُو أنْ لَا شَيْءَ يعنيهَا فِي هذِه الحياةِ سِوَى جَمْع الأموال والسفر والتنزُّه، والتمتُّع بمتع الحياةِ الوَقتيةِ الزَّائلةَ.

لَمْ تَقْــرأ الأمُّ أيَّ بندٍ مِنْ بنودِ العقــد، كَانتْ تنفذُ مَا يقرُّهُ العالمُ دونَ تدخُّلٍ أو اعْترَاض، مُتقبلةً كلَّ شَــيءٍ.. ليسَ اضطِرَارًا، وإنمَا بكلِّ الرضَا والعذُوبةِ واليسْر. أمَّا دنيا فقد قَبلتِ المقامرةَ والمقَايضةَ بكلِّ السعَادةِ والسرور.

وقبلــت دنيا المخاطرةَ بَــلْ المقامرَة ووَقَّعــتَ دنيا عَلىَ العقــدِ وَكأنهَــا تُوقِّعُ عَلــى بطاقةٍ لحضُور حفل عَشَــاءٍ، أوْ علَى قبُولها رِحْلة فِي جولةٍ للخارج لمدةِ تســعةَ أشهرٍ، وَمَا العجبُ فِي ذلكَ؟

وعادَا مرةً أُخرى للقاهِرةِ فِي انتظارِ نتيجةِ الحَمْل.

* * *

وبعدَ إتمام زرَاعةِ البويضَةِ المخَصَّبة فِي رحِم دنيا الشَّقراء الإيطالية، كانَ كلُّ يوم يمْضِي يزيدهَا خوفا ورهبَةً.

وراحَ الجنينُ ينمُو، يكبرُ، يتحركُ، بلْ ويتقلَّبُ ويلعبُ فِي أمانٍ.. فحيَاتُهُ مُتوقفةً عَلىَ حياتهَا هِيَ، وَبقاؤهُ موقُوفا عَلىَ بقائهَا هِيَ.

وَلكنْ! أتراهَا تشعرُ بهَا الآنَ فتتألم لِألمِهَا؟ أتراهَا تحبهَا كمَا أحبتهَا هِيَ؟ حالــةٌ غريبةٌ كَانت تتملكُ دنياَ، جَنينٌ يتحركُ بداخلهَا بينَ أحشائهَا، يتغذَّى مِنْ دمائهَا، تقيه السمومَ وتلفظهَا عَنْهُ، يعيشُ سَاكنًا هَادِئًا داخلهَا هِيَ.

تتغــيرُ معالمُ وتضاريسُ جســدهَا تمهيدًا لأمومتهَا التِي راحتْ تســرِي فِي عُروقهَــا دونَ أنْ تــدرى. جنينٌ مَا، غريبٌ عنهَا يملؤهَا شعورٌ بالحبِّ والشَّوْقِ إليْه.

كيفَ حدثَ هذَا؟ وهَلْ حَقًا هُوَ غَريبٌ عنهَا؟

لمْ يخبرهَا أحدٌ عَنْ سِــرِّ الأُمُومةِ ولغزِ تلكَ الغريزةِ الَّتِي راحت تبثُّ بداخلهَا حُبًا وخوْفا لمْ تعرِفْهُ مِنْ قبلُ.

حنـــينٌ مَا يســـرى فِي أَوْصَالها.. يمنعهَا تســـليمُ مَا فِي بطنهَـــا مُحَررًا مِنْهَا، تراهَا فِي شَاشــــةِ الفُحُـــوص الطبيّةَ مُغْمضة العينين فِي وضْعِ القرفُصَاء ويربطهَا الحبلُ السُّرى ليغذيهَا.

كمْ يمرُّ الوَقتُ سَـريعا. تسعةُ أشهرٍ مضَت بسُرْعةٍ كيوم أوْ بعضِ يوم. وَكلمَا خَلت إلىَ نفسهَا تُحدثُ طفلتهَا الرَّاقدةَ فيهَا وَتلاطفهَا وكأنها تســمعهَا، ثُمَّ فجـــأةً يملؤهَا الحزنُ عندمَا تتذكرُ أنهَا مُجردَ حضَّانةٍ صناعيّة لطفلةٍ سينتزعُونها بمجـــرّد ولادتها. كَـــمْ تمنَّتْ لَوْ اســـتطاعَت أنْ تطيلَ فترةَ الحملِ وَتؤخرَ الولادة.. علّهَا لا تفقدهَا، ولا تفرطَ فيهَا.

ولكنْ! كيفَ السبيلُ إلىَ ذلكَ والعقدُ يحولُ دونَ تحقيقِ مَا تصبُو إليه؟ أىُّ شيطانٍ ذلكَ الذى ساعدهَا علىَ التوقيع علىَ مثلِ هذَا العقد، الذِى سيحرمهَا مِنْ طفلتهَا؟

مِنْ أينَ نَشأ هذَا الحبُّ الكبيرُ الذى باتَ يجمعُهُمَا؟

تَضعُ كفيهَا علىَ بطنهَا وتهمسُ بتلطُّف:

- أتســـمعينَ يـــا حَبيبتى؟ متَى سَـــأراكِ تلعبينَ أمامِى وبينَ ذِراعى؟ متَى تأتينَ لأنعمَ بِكِ وبصُحبتكِ؟ إنَّنى عَلى

استعدادٍ للتضحيَةِ بكلِّ شيْءٍ فِي سَبيلكَ. وبإصرارٍ وعزْمٍ تقررُ: وَلَنْ يأخذوكِ مِنّي.

مَا بالهَا لا تشعرُ بالألمِ الذِي تَشعرُ وَتعانِي مِنْهُ كلُّ أمٍّ حَامل؟ مَا بالُ خوفهَا وقلقهَا يفوقُ وهنهَا فلاَ تشعرُ بالوقتِ وثقلهِ، ويمرُّ سريعًا عَلىغير العَادَة؟ لقدْ أحبتهَا قبلَ رؤيتهَا. وكيفَ أصْبحت تحملُ لهَا كلَّ هذَا القدرِ الهائلِ مِنَ الحبِّ وهيَ لمْ ترهَا بَعْد؟ كَانتْ حالتهَا غيرُ كلِّ تلكَ الحَالاتِ التِي ألفنَاهَا لذوِي الحمْل، فلمْ تتمنَّ أَنْ تَمرَّ فترَةُ الحملِ الشَّاقةِ بسرعةٍ كسائرِ النساءِ، فكلُّ حاملٍ تشعرُ بأنَّ الوقتَ يمرُّ بطيئًا، مُرْهقا، مُوهنًا ولكنْ مَا بالهَا لا تشعرُ بكلِّ هَذا ومَا بالُ الوقتِ يَمُرُّ هكذَا بسرعةٍ، والشهورُ تمضِي وَكأنهَا ثوانٍ، حَتّى قربَ موعدهَا مَعَ الموْتِ.

أجلْ.. فهوَ بالنسبةِ لهَا الموتُ بعينهِ، يومَ يأخذونَ ضنَاهَا ومولودهَا مِنْهَا. يُوقظهَا ضَميرُهَا:

– لكنْ هناكَ عقدٌ مُوَقع، وَتقاضَتْ عَلى ذلكَ المبلَغَ مقدمًا.

تضعُ أناملهَا عَلى بطنهَا، تُحركهَا وكأنهَا تتحسَّسُ طفلتهَا لتردَّ عنْهَا:

- أنــتِ.. أنــتِ وحدكِ التِى تســمعينَ قلبِــى الآنَ، وتشــعرينَ بِى، فأنَا أعطيكِ وأغذيكِ مِنْ دَمِى وَجســدِى، فأنتِ منِّى، أجلْ جزءٌ مِنِّى أنَا، ولنْ يأخذوكِ مِنِّى أبدًا.

يعودُ ضميرُهَا يَسْألهَا:

- لقدْ وُثق العقدُ، ببنودٍ وشروطٍ حَادَّةٍ، وَميعاد محدَّد، ولنْ تَستطيعِى الإفْلاَت، إنَّ مبادِئَ العقْدِ مَبْعثها القانونُ، والقانونُ هنَا حَاسِــم، رادع، قَاطِع، وأنتِ وَافقت وقبلتِ وقبضتِ، فلنْ تَسْتطيعِى الإفلاَت منَ العدالةِ وتنفيذِ شروط العقْد.

- أية عدالةٍ تتحدثُ عَنْهَا؟

- عدالةُ تنفيذِ العقْدِ، أمْ تظنينَ أنَّ الأمرَ هينٌ وســيمرُّ بهذهِ البســاطةِ التِى فِى مَخْيلتك، وأنَّ المسألةَ كلَّهَا لا تزيدُ عَنْ كونهَا مُجرد رحْلةٍ لإنجَابِ طفلةٍ غريبةٍ عنكِ.

- إنهَا طِفلتِى أنَا.

- ســتكونُ نســخةٌ طِبق الأَصْــل مِنْ أُمهَــا، صاحبةُ البويضَة المحْمولَة.

- وهَلْ يصحُّ أنْ تكونَ الأمُّ هِىَ البويضَة!!

فهناكَ العديدُ مِنَ البويضَاتِ التِي تفقدُ مِنْ كلِّ سيدةٍ أَوْ أُنثَى دونَ جَدْوى، هَلْ نَطلِقُ عَلى كلِّ بويضَةٍ لقبَ الأمِّ.

– لكــنَّ البويضَــةَ حَاملة المادةِ الورَاثيةِ التِي ســتورثُ فيمَا بَعْــد أيضًــا غَريبة..مجْهولَــة.. وأنتِ مُجــرد وعَاء للبويضَــة المجْهولة حَاملة المادّة الوراثيّــة للطفلةِ الميِّتة، فأنــتِ حَضَّانــة، مُجرَّد وعَــاءٍ مُكيفٍ وَمُجَهــز طَبيعيًّا، وعَاءٌ مُؤَقَّت.

– مُسْتحيلٌ، فأنا حَاضِنَة ولستُ حَضّانة. أنَا أمٌّ.

* * *

الأم البديلة ..!

وحانَ وقتُ الميلاَد والموتِ..

مَا باله يأتِي مُسرعًا هَكَذا، وكأنه يتضَافُر مَعَهم عَلَى قتلهَا! وَجَاءتِ الطفلةُ خَمْريَّة اللَّون. سَوْداء الشعر، وَارتفعَ صُرَاخها.. ونهضَت دنيا مِنْ فراشهَا بلاَ أوجَاع أوْ آلام تبحثُ عَنْ طفلتهَا، وقبلَ أنْ تندفعَ خَارجَ غرفتهَا أعادوهَا إليهَا قائلينَ: اسمهَا أشجَان.. هَا هِيَ.. وعليكِ مُراعاتها حَتَّى تأتِي أمها.

وكَمْ تمنَت ألَا تأتِي تلكَ السيدةُ التِي تزعمُ أمُومُتها.

أخفَى العالِمُ أنتينورى خبرَ الولادةِ عنِ الأم حتَّى تستطيعَ المولودةُ أخذ قسْط منْ لبنِ الأم البديلةِ، وبعْدَ الاطمئنانِ عَلى حَالةِ المولُودةِ طلبَ مِنَ الأمِّ السَّفر والحضُور لتتسلَّمَ بضَاعتهَا الطفْلة المُسْتنسخة أشجَان.

التقَتْ دُنيا بالعالم أنتينورى وهو يقومُ بفحصِ المَوْلودةِ فِي أوقاتٍ مُحدَّدة منَ السَّاعات، ويدونُ، كاتبًا، مُلاَحظاته فِي ملفِّ إيفَا حوّاء المِصْرية.

سألتهُ دنيا:

أليسَ مِنْ حقىِّ التَّرَاجع وردِّ المبلغِ الذِى تَقَاضيتهُ مُقابل أنْ يتركُوهَا لِى؟!

نظرَ إليهَا أنتينورى مُندهشًا:

- مَا الذِى تقولينَ؟ بالقطعِ مُستحيل، لأنهَا ليسَتْ ابنتكِ وَإنما ابنتهَا هِىَ.

- لكنهُ لولاَ وُجُودى وَبَقائى عَلى قيدِ الحياةِ طوَال فترةِ الحمل مَا خرجَت إلى الوجُود!!

- كاَنتْ ستَجدُ غيركِ لِتؤَدى الدورَ والمهمّة التِى قمتِ بهَا.

- لكنْ!

- لكنكِ سيدتى قبلتِ العرْض، وليسَ هناكَ مجالٌ للترَاجُع يَا عزيزَتى.

وكمْ مِنْ مرةٍ تحاولُ دنيا الهَربَ مِنَ المستشفَى دونَ جَدْوى!!

نجحَتِ التجربةُ وَأعلنتِ الحربَ عَلى الأمّ منذُ نَجَاحهَا، ومرَّةً أُخرى خَرجت أشجَان إلىَ الوجُود بعينيهَا

السـوداوين، وشـعرهَا الأسـودُ الناعمُ، ولونهَا الخَمْرى الجَذاب، وَضحْكتهَا الشـقيّة السّـاحِرَة.. لتخطفهَا الأمُ البديلـةُ الحَاضِنة بحجّة حَمْلها وَهنًا عَلى وهْنٍ، وعادتِ الأرضُ لتهتـزَ مـنْ تحتِ قدميهَا مِنَ جديـدٍ لتصارعَ مِنْ أجلِ ابنتهَا.

واندفعتِ الأم فِي اتجاهِ الطِّفلةِ المَوْلودة، تزفهَا الفرحةُ وبسـرعةٍ خطفتهَا دنيـا مُبتعدةً بهَا عـنِ الجميع حيثُ اجتمعَ الزوجُ والطبيبُ وزوجُه ودنيَا الأمُّ المدّعية.

وفوجـئ الجميعُ بـأنَّ دنيا ترفعُ مُسدسًـا عَلى الجميع وَتُهددهم بالقتلِ إذَا تجرَّأ أَحَدٌ واقتربَ مِنْها، لأخْذِ الطِّفلةِ.

عـالجَ أنتينوري الموقفَ بحكمةٍ ورشـدٍ مهدئًا الأُمَّ تارةً وَمُهدئًا دنيَا تارةً أُخْرى. فقالَ للأُمِّ:

– لا دَاعى لاسْتِخدامِ القوةِ والعنفِ معهَا. فالطفلةُ منْ حَقكِ وَأنا شاهدٌ عَلىَ ذلكَ.

وخرجَ الجميعُ بعدَ أنْ تَركُوا خَلفهم زوبعَةً مِنَ العَاصِفة لمْ تهـدَأ بعْـد. ضمَت دنيا أشـجَان إلى صدرْهَا بحنانِ أمٍّ لَمْ تَعْهده مِنْ قبل. لقدْ فقدتْ حبيبهَا مِنْ قبلُ، كانتْ تظنُّ

أنَّ حبهَا السَّابقَ شملَ العالمَ كلَّهُ بِشَتىً أنواعِهِ وبكلِّ صُوَرِه وَألوانِـهِ، ولكنْ ما بالُ هذَا الحُـب الكَبيرِ يفوقُ الخيَال، الحبُّ الذِى تشـعرُ بِهِ معَ هذِه الطِّفلـةِ التِي لاَ حولَ لهَا وَلاَ قوةٍ.

مُسـتحيلٌ أنْ تتنازلَ عنهَا وهيَ التِيَّ سَكنت بداخلِهَا هِيَ وحدَهَا. وَكبرت، ونمَت داخلهَا دونَ الآخرينَ.

وقـررَت الأم ألاَّ تَعودَ للقاهرةِ بـدونِ طفلتهَا واندلعَت الحربُ مِـنْ جديدٍ. وَجَـاءت معركتهَا الثانيـةُ لمواجهَة الحيَـاة، لتصـارعَ مِنْ أجـلِ طِفلتها وَرُفع الأمـرُ للقضاءِ للفصْلِ فِي المسألةِ. وفِي بلدِ العجائب يُمكن فعْلُ أىَّ شيءٍ وتحقيقِ أىِّ حُلم إلاَّ تَجاوُز القانُون.

وتمَّ التحفُّظِ عَلى الأمِّ البديلَة – هكَذا يُسـمونَ صَاحبة الرحم المؤَجَّرِ– والطفلةُ تحتَ الحراسَـةِ فِي المسْتشـفى، وَوَكَلَـت كلٌّ منهما مُحَاميًا للدفاعِ عـنْ حقهَا فِي المولُودة الصغيرةِ.

اقتربَ أنتينورى منَ الأم الشرقية قائلًا لهَا أثناءَ زيارتهَا لرؤيةِ الطفلةِ:

- إذا أردنَـا أنْ نتحّدثَ بالحقّ وَالواقع، فَالحقيقةُ أنَّ الطفلةَ ليسَتْ مِن حقكِ وإنّما مِنْ حَق دنياَ.

فزعت الأمُّ لِقُولتهِ تلكَ فرددَتْ مُتسَائلةً بغضَب: كيفَ؟

- فأنتِ لستِ صَاحبة البويضَة، كمَا أنكِ لسْتِ صَاحبة المَادة الورَاثية.

- وَهِيَ كذلكِ.. ليَست صَاحبة المادة الوراثية وَلا البويَضة.

- لكنهَا حَمَلتها تسعةَ أشهر فِي رحمهَا.

- وعـاءٌ، مجرّدُ وعاء لبويضَة لاَ يربطهَا بها أيةُ صلَة، حضّانة، مُؤجّرة، وقَدْ تقاضَت ثمنًا لذلكَ.

- إذا سـلّمنَا بأنهَـا كانـت حَضّانة، فلهَـا دورٌ فِي إنجابهَـا، أمّا أنتِ فليسَ لـكِ أيُّ دورٍ، وفِي هذِه الحالةُ يصبحُ لهَا الحَقُّ فِي الطفلةِ أكْثرُ مِنك.

- كيفَ؟ لمْ يكنْ لِى أيُّ دورٍ؟ ألستُ سببًا فِي هِذه المادةِ الأَصْليةِ الوراثيةِ التى تَشكلتْ منهَا الطّفلة؟

بثقةٍ يُجيبهَا: كلاً سَيدتى، فالمادّة الوراثيةُ ليستُ مَادتك، ولكنهَـا مادة غَريبة عنكِ، لأنهَا نـادة وأصْل للطفلةِ الراحلةِ المنزوعَةِ منهَا.

- لكنهَا طِفلَتِي.

- علميًّا ليسَــت المُسْتنسخةُ طِفلتكِ، لأنهَا توأمُ طفلتكِ أَيْ شقيقةُ ابنتكِ، فلستِ أُمٌّ لهَا.

- مُسْتحيل.

- الواقــعُ- دائمًا- مُؤلم وَمُفزع، وإذَا فُحِصَ هذَا الأمرُ واكتشــفَ أنَّ المادةَ الوراثيةَ ليسَــت مَادتك سيكونُ الأمرُ صعبًــا للغَايــة وَفي هِذه الحالةِ، لنْ يكــونَ هناكَ مفرٌّ مِنَ الإذعانِ للحكْمِ أوْ تسويَةِ الأمرِ بالتفاهمِ مَعَ أمهَا.

- لا تقلْ أُمَهَا. فأنَا أمهَا.

- سيدتِي، ليسَ لدينَا متسعٌ مِنَ الوَقتِ للعنادِ وَالكبْرِ، فَالمسْــألةُ تزدادُ تعقيدًا ولابدَّ مِنَ المرونةِ للبحثِ، والوصولِ إلى حلٍّ مَا، ولقدْ أوْضحتُ لكِ المســألةَ، والتفتَ متوجهًا للخروجِ مِنَ المعمَل.

أسْرَعتْ تلاحقهُ قائلةً:

- أرجــوكَ. مَهْــلاً، فمَــا الحــلُّ إذَنْ؟ وهلْ يمكنْ أنْ تحُــولَ دونَ الكشــفِ عــنْ ذلكَ، أقصــدُ، الأصولَ الوراثية؟

- بالقطع مُمْكن.. وسيتمُ طَرحُ هذه المسْألَة وعرضهَا عَلىَ المسْتشارينَ العلْميينَ لفحْص الخَريطةِ الوراثية لكَل مِنَ الأم وَالطفلةِ المسْتنسخة وربمَا للأبِ أيضًا، وهذا أمرٌ ليسَ بحَاجة لوقتٍ طويل، ولكنهُ سيتمُ بأخْذِ خليةٍ مِنْ كلٍ منهمَا، ولتكنْ عينةٌ مِنَ الدم وعزلَ المَادة الورَاثية لكل منهمَا الطفلةُ والأبُ، وفحصُ الخريطةِ الوراثيةِ، وَمُطابقةِ تلكَ الخريطَة الورَاثية للطفلةِ لكلٍ مِنَ الأم والأب. وقطعًا سيسفرُ الكشفُ عنِ الحقيقةِ.

حَملت دنيا طفلتهَا بينَ أحْضَانها تكادُ تُخفيهَا، وَجَاءت ضحية الشرْقيّة لتبدأ معركتهَا مِنْ جديدٍ، والمعركةُ هذه المرةُ مع امرأة غَرْبية فهِيَ معْركةٌ وحربٌ ليسَ بينهمَا تَكَافُؤ.

امرأتان.

ضحية..! تعيشُ في ظلِّ رجلٍ.. تفكرُ بقلبهَا وتحبُّ بعقلهَا. وكلُّ رَأسمالهَا في الحياةِ هو العَاطفة، فهِيَ تعيشُ مِنْ أجلِ الرجلِ أولًا ثُمَّ مِنْ أجلِ أطفالهَا أولًا وأخيرًا.

أسيرةُ هذَا الحُب. ومعَ امرأةٍ عَاطِفيةِ جَميلةٍ، لا تعرفُ مِنَ الدنياَ شيئًا سِوَى الحبِّ والعطَاءِ وانتظَاره، والعيشِ مِنْ أجْلهِ. تارةً فِي صُورةٍ رجل وأخرَى فِي صُورة طِفْل..!

المُهم.. أنهَا تعيشُ مِنْ أجلِ آخر وَفِي ظلِّ آخرَ، وليسَ مِنْ أجْلِ نفسهَا.

فالحربُ هنَا ليَست مُتكافئة؛ إذْ كيفَ ستتعاركُ امرأتَان؟ امرأةٌ وَاقعيَةٌ قويّةٌ، تعيشُ مِنْ أجلِ نفسهَا وحسْب، وتسخِّرُ كلَّ الأشياءِ لخدمتهَا، حُرَّةً.. امرَأة تَختارُ، بلْ وتملكُ القدرةَ عَلى الاختيارِ.

وامرأةٌ تخضَع لكلِّ طريقٍ تقذفُ بهَا فيهِ الحيَاة. والحياةُ يحكمهَا قانونُ البقاءِ للأقوَى. وليسَ هناكَ قانونٌ مِنْ أجلِ الحبِّ والرقِّ والعبُودية.

* * *

وَحَكمتِ المحكمةُ بأنَّ الطفلة ابنةٌ لصَاحبةِ البويضَة الحاملة للمادة الوراثية وَمنْح السيدةِ البديلَةِ حَق رعايتهَا وإرضاعهَا فِي حَالةِ مُوَافقةِ الأمِّ فقطْ.

صَرَخت دنيا مُستحيل. إنهَا ابنتِى أنا. وجرَت بطريقةٍ عَشْــوائية يمينًا وشمالًا.. بحثًا عنْ مَــلاذٍ يَحْميهَا مِنْهم. ونزعُوا منهَا الطفلةَ بعنفٍ، وَصرخت صَرخة مُدَويةً أفزعَت كلَّ مَنْ فى القَاعة. وَصَرَخت الطفلةُ بدورهَا وكأنهَا ترفضُ هذَا الحُكــم وَتَوالت صرخاتُها بحثًا عَنْ هَذَا الدفءِ الذِي ســرعانَ مَا افتقدتهُ بحرْمَانهَا مِنها. وبســرعةٍ ذَهبت الأم تحمــلُ الطفلةَ وقَدْ طلبتْ تعيينَ حرَاســةٍ عليْهَا خوفًا مِنَ اختطافِ الطفلةِ، حَتّى يَصعدُوا الطائرةَ وتقلَعَ بهمْ وَفشلت دنيَا فِى مُحَاولة مُرَافقةِ الطفلةِ.

كانت الفرحةُ تغمرُ الأمَ مِنْ كلِّ جَانبٍ، وبسُرْعةٍ حزمَا أمتعتهمَا، ولكنْ مَا بالُ الطفلةِ لا تكفُّ عَنِ البكاءِ والصرَاخ وبمجــرَّد وُصُولهم إلىَ الفنــدقِ. أعلنــتِ الأم البحْث عَنْ مُرضِعةٍ مُقيمَةٍ للطفلةِ المولُودَة.

* * *

وَكَمْ عَــدَد المرْضعَات اللاتِــى تمَّ فَحْصهنَّ وإجــراءِ التحَاليل عَليهــنَّ، لكنَّ الطفلةَ لمْ تســتجبْ لإحدَاهنَّ رافضَــة كلَّ الأثداءِ الغريبةِ عنهَا، وكأنهَا تبحثُ عَنْ رَائحةِ أمهَا.. وَدفءِ صَدْرهَا.

وكلمَا اقتربتْ مُرْضِعةٌ مِنْ الطفلةِ وقدّمَت لهَا ثديهَا ذعِرت الطفلةُ وأبعدتْ فمَهَا عنهَا.. نَافرةً منهُ. مُعْلنةً بذلكَ الرَّفْضِ التَّامّ بالصرَاخِ وَالبكَاء.

أبلغَت الأم أنتينورى بذَلكَ.

حَذّرَهَا منْ عدم إرضَاع الطفلةِ طوالَ هَذِه السَاعَات المتَوَاصلَة وبأنهَا مِنَ المكنِ أنْ تفقدهَا. وَأنهُ لاَ حلَّ لديهَا سوَى الإذعَانِ لرَأيهِ بأنْ تتخذَ مِنْ دنيا مُرْضِعَة وَمُرَبية مُقيمةً دَائمَة لهَا.

وَلَمْ يكنْ هناكَ مَفرٌّ مِنَ الإذعَانِ لاقترَاحِه، والاسْتسْلام للأمِر الواقع.

ترفعُ دنَيا سمّاعةَ الهاتفِ. تبتسِمُ مُهَللة وهِيَ تمسحُ دموعَهَا قائلةً:

– مُجَرد مَا يقْطعُه الطريقُ مِنْ وقتٍ سَأكونُ عنْدَكم.

لمْ تفكرْ أوْ تتردّدْ أوْ تأخذَ أىَّ شىءٍ مِنْ أمْتعتِهَا، فقطْ فتحَت درجَ كتبهَا وَبعثرتْ مَا بهِ بحثًا عَنْ جوازِ سفرهَا. جَمَعت كلَّ مَا لديهَا مِنْ نقودٍ وأسرعتْ تَركبُ سَيَّارتهَا يُرَافقهَا مُحَاميهَا.

وَأخذت فِى أثناءِ طَريقهَا للفندق تشــرحُ له المهمةَ التى توكلهَا لهُ، وكيفَ سَــيُحولُ رصيدهَــا إلى القاهرةِ وَيصفِّى كلَّ متعلقاتهَا مِنْ بيْع السيَّارةِ والبيتِ، وليترك فقط البيتَ الصَّغيرَ الذِى يقعُ فِى (قرية تيبلى إحدى ضواحى روما) ليبقَى تحتَ رِعَايته دائمًا.

دخلــتِ الفندقَ مُتوجهــةً للجنَاح الــذِى تتنظرهَا فِيه طفلتهَا. دخَلت مُتوجهةً فِى اتجاهِ الصراخِ والبكَاء.

فهــىَ وحدهَا التى لاَ تخطئُ فِــى تمييزِ صوتِ طفلتهَا وَبُكائهَــا.. كانــتْ تحمــلُ بــينَ يديهَــا القــردَ الصغيرَ الشَّقى صديقهَا.

أسْــرعت بفتح الغرفةِ دونَ اســتئذان. وَجَذبت الطفلةَ بينَ أحْضانهَا.. وَ بســرعةٍ هدأت الطفلةُ وكفَّت عَن البكاءِ والصراخِ.. وَمَسحت دموعَهَا فِى صدرهَا كقطةٍ تختبئُ فيهِ بَحْثًا عَنْ طعامهَا ومأوَاهَا.

جلستْ دنيا ترضعهَا وهِىَ تضمها بِحبٍّ لمْ تعهدهمَا مــنْ قبــلُ، وكيفَ لا تســعدُ وقــدْ ردتْ إليهَــا روحهَا بعَوْدتهَا؟

غارتِ الأمُّ منْ هذَا المشـهدِ البديعِ الذى حُرمت منهُ، ونظرتْ إليهَا نظرةً لا تخلُو مِنَ الحسدِ، علاوةً عَلَى الحسرةِ التىَ امتلأتْ بهَا عَيناهَا.

تحدثَتْ دنيا بهُدُوءٍ قائلةً بالإنجليزيّة:

– أرجُو منكُم أنْ يكونَ السـفرُ غدًا.. ليلًا حتَّى أتمكَّنَ مِنْ تَصْفيةِ مُتعَلقَاتِى، وَتسليم المحامِى بقيةَ أوراقى لمتابعةِ بعضِ الشئونِ التى سَأتركُهَا لهُ.

اقتربـتْ منهَـا الأمُّ قَائِلـة بَلهجَـةٍ تملؤهَـا الغيرةُ والحقدُ والتحدِّى:

– لا دَاعى لتصْفيةِ كلِّ متعلقاتكِ، لأنكِ سَتعيشِـينَ حَتَّى فِصَالَ الطِّفلةِ.. أىْ لمدةِ عاميْنِ فقطْ. وَسنطلقُ بعدهَا سَراحكِ.

لَمْ تعرْ دنيا كلماتِهَا أدنىَ اهتمَام وَقَابلتها بدونِ اكتراثٍ فقدْ كانتْ فِى حالةٍ منَ السعادةِ والنشوةِ بحيثُ لاَ تودُّ أنْ يعكرَ صفوهَا أحدٌ. جذبَ الزوجُ امرَأتهُ مِنْ مِعْصمِهَا بقسوةٍ وهو يَقُولُ: – ضحيَّـة، مَاذا بكِ؟ لقدْ أنقذْت الطِّفلةَ، وقدْ كادتْ تضيـعُ منْ بين أيدينَـا، ألا تحمدينَ الله عَلَى كلِّ هذَا؟ ألا تصلينَ شـكرًا لله لسَـتره عَلينَا بعدمِ كشفِ الأمرِ بفحْص وَمُطابقةِ الخريطةِ الوِرَاثية.

فزعَت، صَارخة فِي وجْهِـهِ، وهيَ تضعُ أناملَها عَلى فمهِ منْعًا لإتمَام أقوالهِ تلكَ:

– كُـفَّ عَنْ هَذا الحديـثِ، وَانسَ هَذا الموضُوع تمامًا، وَلاَ ترددهُ مُطلقًا، حَتَّى بينكَ وبينَ نفسكَ.. أتوسلُ إليكَ، لا تُضيِّعْ مَجْهودنَا.. وَإلا سيصبحُ هباءً منثُورًا.

– إذَنْ كفِّـي أنـتِ عنْ هَذه القسـوةِ لدنيـا وَاعْذرِيهَا يا عزيزتِي، لأنهَا أمٌّ.

– أمٌّ، أنـتَ أيضًا تخالهَا أمًّا لِطفلتِي؟ كيفَ تكونُ هيَ أم وَأنَا منْ أكونُ إذَنْ؟

– لكنهَا حملتهَا وهنًا عَلَى وهنٍ، تسـعةَ أشهرٍ فهيَ أمٌّ وَلا شـكَّ فِي ذلكَ، ألا تفهمِيـنَ؟! الأمُّ هِيَ التِي تحمِلُ، وتلدُ، وترضعُ. وَيَكْفيكَ شـاهدًا على ذلكَ الحُب مَا فعَلته مِنْ تضحيةٍ فِي سَبيلِ طفلتهَا.

– أيَّةَ تضحيةٍ تلكَ التيَ تقصدهَا؟

– تضحيتهَـا ببلدهَا ووطنهَا، وَتصفيـةُ كُلّ مُمْتلكاتهَا لتأتِـيَ فِي صُحْبتهَا! ألاَ يكْفيكِ هذَا دليلًا وشـاهدًا عَلَى أمومتهَا؟ لماذَا تنكرينَ كلَّ ذلكَ؟

ثُــمَّ أردفَ قائلًا: ضحيَّــة، حَبيبتِى، إذا كنتِ تحبينَ الطفلةَ فلابدَّ مِنَ الوفاقِ مَعَ دنيا وَلَا تكدرينَ حياتَهَا، لأنَّ الطفلةَ يجبُ ألَّا ترضَعَ لبنًا مُكدرًا بالحزنِ والشقاءِ.

فعلينَا، كلنَا، تحمُّل كُلِّ شــىءٍ فِى سبيل هَذه الطِّفلة، لأَنَّها غَاليةٌ، بَاهظَةُ التكَاليفِ. كلفتنَا تلكَ المقامرَةِ الكثيرَ. ولاَ نعرفُ حتىَّ الآن أَنَّ مَا فعلنَاه حَلالًا أَمْ حرامًا؟!

انفعَلت للهْجَته تلكَ قائلةً:

– ماذَا بكَ؟ بلْ ماذَا أصابكَ؟ ألنْ تكفَّ عنْ هَذَا الهُراء، كلُّ شــىءٍ تمَّ بإرادَة الله، لأنهَا مِنَ ابنتنَا، وليسَــت غريبةً عَنَّا فليسَ هناكَ مِنْ خلْطِ أنسَاب، وأرجوكَ دَعْ هَذَا الأمرَ وَلَا تفكِّـرْ فيهِ، وفكرْ فِى صَغيرتنَا تلكَ، التِى ستكونُ نسخةً طبقَ الأصْلِ منْ فقيدتنَا الصَّغيرةِ، كَلاَّ بَلْ ستكونُ هِىَ نفسهَا، فلم تعدْ رَاحِلة الآنَ، لأنهَا عَادت إلينَا بعدَ طُولِ غِياب.

تَغَــيّرتْ دنيا، وَتبدلتْ أحوالُهَا، عَاداتهَا، ســلوكهَا، قطعًا كانَ وَاجبًا كُل هذَا التغيُّرِ ولمْ يُؤَثر عليهَا شــىءٌ فِى هــذِه الدنيا قدرَ مَا أثَّرتْ عليهَا تلــكَ الطفلةُ، مَوْلودتهَا، مُنذُ حَمْلها بهَا.

وتغيرَ فيهَا كلُّ شيءٍ، كَانت لا تعرفُ مَعْنَى العطَاء، فتعلَّمتهُ دونَ مُعَلم، كانتْ تُجيدُ لعبةَ الحيَاة. تُسخرُ كلَّ شيءٍ مِنْ أجلهَا، وَفجأةً أصبحَت أمًّا، عَلّمتهَا الأمُومَةُ مَا عَجَزت عَنْ تعلُّمِه، مِنَ الحيَاة.

* * *

دخلتْ دنيا عَلى طفلتهَا التِي كَانت تقفُ فِي الشُّرْفة ترقبُ موعدَ وُصُولها، تنظرُ للمَارّةِ فِي الشَارعِ العريضِ ذي الخُضْرةِ العَاليــةِ مِنْ كلِّ جانب، تترقــبُ وُصُولَها، وكلمَا جَذبتهَا الأمُّ صَرَخت صَرْخَةً مُدَويَةً، مُرْعبةً، فَيهَا إصرَارٌ عَلى وقفتهَا تلكَ، وإصرارهَا عَلى انتظارِ دنيا وقبلَ أنْ تدقَّ دنيا جرسَ الباب تهللُ الطفلةُ باسمهَا بطريقةٍ مُتعثرةٍ تبعثُ فيهَا جَمالا فوقَ جمالهَا، وتفتحُ مُديرة المنزلِ البابَ، فتنهالُ دنيا عَلى أشجَان بالقبلاتِ والأحضَان، مُسْرعة إلى غُرفتها، مُحَملة لهَا بشتىّ ألوانِ اللعبِ المتحركةِ الباهظةِ الثَّمَن والنادرةِ وتقولُ لها مُداعبَة:

– هيًا يا إش إش، جميعُ هَذه اللعبِ منْ أجلكِ أنتِ.

وَأخرجت دنيا مِنَ الصندوقِ سَائِرَ الحيوَاناتِ الشائعةِ، وَبنَتْ لهَا سُورًا للحديقةِ وَأوقفَتْ كلَّ حيوَانٍ خلفَ الأشجارِ وبينهَا.

كانَــتْ إش إش تمســكُ بالحيوَاناتِ تملؤهَــا الفرحةُ والدهشــةُ، وتمسِكُ بهِمْ لاكتِشَــافِهِم مُغتبطةً بِهَذِهِ اللعبِ الجميلةِ التى يسحرهَا عَالمُهَا.

وبينَ حيوَانــاتِ دنيا المتحَرّكَة وقردهَا الذَّكى الشّــقى (كوكى) الصَّغــير وَالعَرَائــس النَّائمَةِ والرَّاقصَةِ، وســباقُ القطاراتِ والســيارات وَأسَــاطيرَ دنيا الشيقَة، كبرَتْ إش إش وترعْرَعَــت، طِفلة، ذكيّة وقــدْ جَمَعت فى خصالهَا أعْلَى الصِّفَات وأجملهَا فوقَ خصالهَا البَريئَة.

كانتْ أشجَان تخافُ كثيرًا مِنْ عقابِ أمهَا، لِئلّا تنهرَهَا هِىَ الأُخرى، وانطبَعَت وَارْتسمتْ صورةٌ غريبةٌ للأُم داخلَ الطفلةِ أشــجَان دونَ قصدٍ أوْ عَمْدٍ. كانتْ تودُّ لوْ تستطيعُ لدَافعَت عَنْ دنيا.. لوْ بِوُسعهَا أنْ تقضِى كلَّ أوقاتهَا معهَا دونَ أَنْ تعكرَ صَفوهمَا أمهَا.

ورغــمَ أنَّ الأم كانــتْ لا تقْســو عَلى أشــجَان، إلاّ إنَّ أشجَان نمَا داخلهَا شعورٌ غريبٌ بأنّ أمهَا ظَالمةٌ، قَاسِيَةٌ، لا تحبُّ دنيا، وأخذَ هذَا الشعورُ يتضخَّمُ بمرورِ الوقْتِ.

* * *

وكلمَا كَبرت أشجَان، كبرتْ بداخلها علاماتُ الاستفهام الّتى لمْ تفارقْهَا لحظةً واحدةً.

دنيـا..!! مَــنْ تكونُ دنيا تلكَ؟ إنهَا ليسَــت مُربية، لكنهَا أيضًا ليسَــت مِنَ الأقاربِ لجنســيتهَا الإيطَاليةِ!! غريب! فمَا الذِى جَمعهَا بهَا؟ لا تعرفُ. ولكنهَا ستعرفُ. أجلْ مِنَ المؤكدِ أنهَا ستعرفُ، وَلاَ محالةَ فِى ذلكَ. منْ هِىَ دنيا؟ ومَا هُوَ موقعهَا منْ خريطَة الأســرَةِ؟ هلْ هِىَ غَريبة؟ أمْ قَريبة؟

كلُّ شــىءٍ فيهَــا يقولُ إنهَــا قَريبة، بــلْ وقَريبة جدًّا أيضًــا، ولا يمكَنُ أنْ تَكونَ غَريبــةً عنهَا، وكلُّ مَا تتذكرهُ عنهَــا مُحَاولاتهم الكَثِيرة فِى إخْراجها وطردهَا مِنَ البيتِ لإبعادِهَــا عنهَا، دونَ جــدْوى فقد كَان حبهَا لهَا وتعلقهَا بهَــا أكْبر مِنْ حقــدِ الأم وكراهيتهَا لدنيــا، فانتصرَ حبُّ أشــجَان لدنيا رغمَ صغرهَا وَقلــة حيلتهَا علَى كرَاهية الأمِ رغمَ قوتهَا وَجَبَرُوتها.

وتعلّمَت الطفلةُ الصغيرةُ كيف تخفِى مشــاعرهَا إرضَاءً لأمهَــا. خوفًا ورهبةً منهَا وحرصًا عَلى دنيا .. لقد فتحتْ

أشجَان عَينيْهَا فرأتهَا قبالتهَا تُرضعهَا تُهدهدُهَا، تُنظفهَا، تلاطفهَا، ترعَاهَا، تُربيهَا.

وإذا كانَ الحيوانُ لَا يخطىءُ بِفطْرته مَا يرضِعه وَيرْعاه فأشجَان أوْلَى بِهذِه الفِطْرة مِنَ الحيوانِ لذلكَ فَهِي أمهَا..

أمها هِيَ دنيا وَهَذَا هو شعورهَا. وليدَّعُونَ ما يرغبونَ فِي ادِّعَائــهِ مِنَ الأمومَةِ ومَنْ تُلقــبَ بهذَا النداءِ، ولكنهَا أمها وحَسْب وهذا هُوَ كلُ شعورهَا بهَا.

نهضَــت إش إش مِنْ فراشــهَا، فتحَت بــابَ غرفتهَا وَمَشت بخطُواتٍ مُتَوجسَــةٍ، يملؤهَا الخوفُ والرعبُ مِنْ حُضــورِ أمها واكتشــافهَا الأمْــر. ودونَ أنْ تدقَّ بابَ دنيا فتحَت بابهَا بخُفُوت.

أســرعَت فِي اتجاه فراشــهَا وبمجرَّدِ مَــا تلفتتْ دنيا وعيناهَا مَليئتانِ بالدُّموعِ إلاَّ وَألقتْ أشــجان بنفسِــهَا بينَ أحضانهَا، فهمسَت دنيَا بصوتٍ يقطعُهُ البكاءُ:

– أشجَان.

أمسَكَت الطفلةُ وجهَ دنيا بكفيهَا الصَّغيرتْينِ وقَالت لهَا بنظرةٍ يملؤهَا الحبُّ والإخلاصُ والعَطَاء:

– كَلاَّ، أنا، إش إش، إش إش.

ثُم قربَتْ فاهَا مِنْ أذنهَا وهمستْ لهَا مُداعبةً بِبَرَاءةٍ:

– هذَا فيمَا بيننَا..!

عَرَفتِ الطفلةُ أنَّ هناكَ مَنْ يغارُ ويحقدُ فعالجَت المشكلةَ بكلِّ براءَةٍ وفطْرَة.

* * *

كَبرت أشَجان وَكبر معَها تراكُم هذَا الصراعِ الدائِم وتلكَ الحيَاة، والغريبُ فِي هذَا الصِّرَاع، أنهُ كانَ حُبًّا لهَا، ومنْ أجلهَا بلْ وَفِي سبيلهَا أيضًا.

وظلتْ دنيا دَائمة المُداعبة والمُلاطفةِ، تبعدهَا عَنْ كلِّ الأمورِ التِي تُسئَ إليهَا، فهِيَ أُمٌّ، والأمُ تبعدُ كلَّ ما يُؤْذى أبناءهَا عَنْهم، حَتَّى لوْ كانَ هذاَ الأذَى مُجَرَّد هَوَاجس أوْ أفكَار أوْ تسَاؤلاَت.

كانتْ كلَ يوم تزدادُ جَمَالا وَرِقَّة فِي عيونِ طفلتهَا، فمَا أسعدَها حَظًّا بِهَذَا الشّعُورِ الجَميلِ.

* * *

مصير البنت المستحيلة ..!

وَهكــذَا مــرّتْ بينَهُم الأيــامُ.. حتَّى تضخَمَــتِ الطفلةُ المُسْتحيلَة، وَسَاءت صِحّتُهَا.. وَنُزعَتْ مِنْ بينِ أيدِيهم بقوّةِ القانُــون، لِتحْبسَ وَحيدة فِي زِنزانَةِ المُسْتشــفى، لتجْرَى عليهَا الفحوصُ والتجاربُ كفأرِ المعْمَل وبينمَا كانتْ أشَجان تدوِّنُ ذكريَاتهَا تلكَ .. كانَ العلماءُ يترقبونَ حَالتهَا.

وأعلنَ الجميعُ أنهُ إذَا كانتْ حَالةُ تضخُّم أشجَان نتيجَة لاستنســاخهَا فهيَ مِنَ الآثارِ الجَانبيّــة التِى تتعرّضُ لهَا، وَلاَ يعرفــونَ بَلْ لاَ يمكنُ توقُّــع أىِّ آثارٍ جَانبيةٍ أخْرى ذلك لكونهَــا الحَالةُ البَشــريّةُ الأولَى والوحيِدةُ المستنســخة حَتّى الآن.

وبدأتْ بالفعلِ أشجَان تشحبُ، ويتغيرُ لونُها، وَكأنَّ دمَها يتغيرُ، كلاَّ لمْ يكنْ شُحوبًا كهذَا الشُّحُوب الذِى نَعتادهُ فِى حَالاتَ المرضِ أو القلقِ أو الفتورِ، ولكنهُ كانَ شحوبًا مِنْ نوع آخرَ، شــحوبًا غير كلِّ ذاكَ الشحُوبِ الذِى ألفناهُ، أصابَ العلماءَ مَا أصابهُمْ منْ ذُعرٍ وَهلعٍ لهذِه الحَالةِ.

وارتابَ الجميعُ في أمرهـا، وَزادت أعراضٌ غرِيبةٌ عَلى مظهرهَا لمْ يستطعْ أحدٌ الكشفَ عَنْ أسبابهَا. فأسبابُ التضخُم غيرُ طَبيعى، وغيرُ معروفٍ، والذِى كانَ يظنُّ بَاطِلا أنه خللٌ هُرْمونى.

لكنْ بقدرِ مَا كانَ هـذَا التضخمُ يعدُّ خَللًا هرمُونيًّا، إلَّا أنـه لا يمكنُ، بلْ مِنَ المستحيلِ أنْ يُؤدى إلى هذَا التَّضخم غيرِ المسبوقِ أبدًا بأىِّ حال منَ الأحْوَال.

وَبدأت أطرافُهَا تَنحسرُ وَكأنَهَا تقصُرُ، هلْ مِنَ الممكنِ أَنْ تتـآكلَ بعضُ الخلايَا فتـؤدِّى إلى ضُمور أوْ انكماش بعضِ الأطرافِ أو الأجزاءِ فِى الجسم؟!

هَالهم مَا يروْنهُ فِى حَالتهَا، بلْ رَاعهم وَبدَأ البعضْ يخافُ فحصهَا بلْ ويتحاشَى الاقـترَاب. كان مُجرد الاقترابِ مَنهَا أصبحَ يُريبهم ويفزعُهم.

وعُقـدت المؤتمراتْ وكثـرت الندواتُ والمناقَشَـاتُ وَنشـرَتْ الأبحـاثُ التِى يملؤُهَا الرعـبُ والخوفُ مِنْ تلـكَ الحالَـةِ التِى ليسَ لهَا مثيلٌ أوْ شـبيهٌ عَلى وجْه الأرْض.

وجَــاء قرارٌ منْ كافةِ أنحَاء العَالم توجسًــا ممًا يصيبهَا وممَّــا قدْ ينتقلُ منهَا للآخرينَ.. وبحثَ العلماءُ عنْ طريقةٍ مَا لعزلهَا، ولكنْ لَا تُوجد تلكَ الطريقةِ أو الوســيلةِ الآمنةِ حتَّــى الآنَ لمثل حَالتهَا المُتفردَة، إذْ كيفَ ســيتمُ التعاملُ معهَــا فِى مَأمــنٍ مِنْ أىِّ أخطِارٍ قدْ تنشــأ نَتيجَة وجودهَا عَلى قيدِ الحَياةَ.. وَعقدَ العلماءُ اجتماعًا طارئًا للبتِّ وحَسْم أمرهَــا، ونظرَ كلٌّ مِنْهُم للآخرِ فِى أثنــاءِ المدَاولةِ، لتقريرِ مصيرهَا فقالَ أحدُ العلماءِ بالانجليزية:

– لا يوجــدُ هنــاكَ أيــةُ آمَــالٍ فِى بقائهَــا عَلى قيدِ الحيَاةِ.

– كيفَ ولمَاذا؟

– لأنَّ خطــورة بقائهَا واســتْمرارهَا عَلى قيــدِ الحياةِ بهذِه الأعرَاض، يتزايدُ كلُّ لحظةٍ عمَّا ســبقتهَا ليسَ ذلكَ فَحســب، وإنمَا خُطورتهَــا عَلى الآخــرينَ.. وَلابدَّ منْ وقــفِ أيةِ تجَاربَ عليهَــا، لأنَهَا ســتكونُ عبثًا لَا طائلَ منهَا بالإضافةِ لتعرضِ المحيطينَ والباحثينَ لعللٍ لَا نعرفُ مداهَا وَلاَ عاقبتهَا.

– لكــنْ مَا بهَا مِنْ خللٍ كمَــا نَرَى فِي أعضائهَا وليسَ وباءً لنخافهَا ونخافُ بقاءهَا؟

– لا نعرفُ؟ ولنْ نســتطيعَ معْرفةَ أىَّ شــيءٍ سوَى هذَا التدَهْــوُر الذِي تتعرضُ له بمرورِ الوقتِ، وتلكَ العِلَل التِي تُصَاحب هذَا التدَهور، لسنَا قادرينَ عَلى تحليلهَا أوِ الحيلُولةِ دوَنهَا، فنحنُ أعجزُ مِنْ مُوَاجهة تلكَ الحَالةِ.

– أتودُّ أنْ تقولَ أنهُ لا مفرَّ إذنْ مِنْ إعدامهَا..!

تعلثمَ البعضُ وتوتَرَ الوضْعُ فقالَ مُقرر (الجلسة وَالاجْتِماع):

– كلاً .. كلَّا. فليَــس تمامَــا مثلمَا قُلــت، ولكنْ حتمًا وَلَابدَّ أنهَا ستُواجهُ الموتَ فِي القريبِ العَاجِل.

وَرَدَّدَ آخرُ:

– قضاءٌ وَقَدَر.. فهذَا القضاءُ ســيكونُ هو الحلُّ الأمثلُ الآنَ.. وإلاَّ ســتكونُ المغامرةُ فادحَة، خاصّة وأنهَا بَشــريّة وليسَت حَيَوَانية.

كانَ العلماءُ المصريُونَ والعربُ يعرفونَ جيدًا أنَّ مَسْــألةَ إعدامهَا ســتُعرضُهم للمسَاءلةِ والتجريمِ والتحريمِ وَمشَاكلَ لا حَصْر لهَا وَ لَا عَددَ.

فكانَ لا بدَّ منْ مُنَاقشـةِ الأمرِ سـرًّا وَخفيةً، وَتقررَ أنْ تكونَ هَذِه الجلسـةُ سريّةً مخافةَ أنْ يتسرَّبَ الخبرُ فكانَ لابدَّ مِنْ كتمَانه، وجَاءت توصياتُ تلكَ الجلسَـةِ السـريةُ بالاسـتمرَار فِي الإعلانِ عنْ مُعَاناتها التى تتدهْوَرُ نتيجَة إصابتهَا بعللٍ وَأمْرَاضٍ مُسْتعصيةٍ، والتَّحْذيرُ مِنَ الاقتراب منهَا، لأنهَا تقتربُ مِنْ سَكَرَاتِ الموْتِ.

* * *

وعرفَ الحارسُ مَا يُضمرونَهُ لأشـجانَ، وبدأوا بالفعل تنفيذ خُطّتهم. وتداوَلَت الصحفُ ووسـائلُ الإعـلامِ خبرَ مرضهَا الأخيرِ غيرِ المعروفِ، وكثرةِ العللِ التى حلّتْ بهَا وأصَابتها أخيرًا، لكنَّ الحارسَ لمْ يَسْـتطعْ الصمتَ فأخبرَ أدهمَ بحقيقـةِ الأمرِ، وَثمةَ مَا ينتظرهَـا مِنْ مصير حَتمى يُدَبرونهُ لهَا ولنْ يكونَ الأمرُ قضَاءً وقدرًا كمَا سيشاعُ واتفقَ عَليه.

فزعَ أدهم لمعْرفته تلكَ الكارثةَ وهرولَ مُسرعًا إليهَا، رغمَ حجبهَا عَنهُ وعَنِ الجميع حتّى عن المصورينَ والإعلاميين إلاَّ إنَّ أدهمَ تمكنَ منْ رؤيتهَا عَنْ طريقِ الحَارسِ.

وَخوفًا مِنْ أنْ تحملَ أشـجانُ أمراضًا وعللاً مَجْهولة لا يمكـن معْرفتها وَلَا التكهُّـنَ بهَا، وخوفًا منَ الفشـلِ فِي مواجهـةِ تلكَ الحالةِ ومعرفةِ مَا قدْ ينتقلُ للآخرينَ منْ عللٍ غيرِ مَعْروفةٍ أيضًا كمَا حدثَ فِي حَالةِ النعجَة دُوللّي (Dolly) وَتعنِي دمْيَـة، التِي كانَ مصيرهَا الإعْدَام فكانَ قرارُ العلماءِ التخلصِ منهَا.

لِكنْ بِسُرعةِ البرقِ نَقَله الحارسُ وَبلّغهُ لأدهمَ.

***

وَتمَّ القَبْـض عَلى الأُم لمحَاكمتهَا بتهمَة فَتْح القبرِ ونزْع عينَاتٍ مِنْ جُثةٍ مَيتةٍ. وتسـهيلِ إجرَاء التجَارب العلميّةِ عَلى إنْسَانَة مُجَرَم قانونًا وَمُحَرَّم شرْعًا.

أمّـا الأبُ فرغمَ أنه كانَ مُعَاونـا، إلَّا إنَّ دوره الثانوى جَعلـه مُتفرجًا ومجردَ شـاهدٍ عَلى الأحـداثِ ليسَ أكثرَ ولاَ أقلَّ منْ ذلكَ.

وفوجئتْ دنيا بهَذِهِ الحقيقةِ الَّتِي تعرفهَا لأولِ مرةٍ.

وجـاءَت مُحَاكمة الأمِّ والبحثِ عَنْ حَارس القبورِ الذِى فتحَ القبرِ وساعدهم فِي إخرَاج جُثة الطفلةِ الميِّتة.

وَثبتَ مِنَ الخريطةِ الورَاثية أنَّ الطفلةَ المُسْتحيلةَ والتِى تُدعـــى أشـــجَان كمَا أطلقُـوا عليهَا حَوّاءَ (Eva)، ليسَـــتَ مُستنسَـــخَة مِـــنْ الأم المسَـــجّلة بشـــهادةِ ميلادهَا .. لأنَّ الخريطَة الورَاثيةَ للطفَلة المسْتَحيلةِ ليسَت مُطابقة لخريطَةِ الأم، وبناءً عليهِ تسـقطُ كلُّ حقوقهَا كأم اسْتنسخَتْ منهَا هذِهَ الطِّفلة، وتمتْ مُحَاكمة الأم بتهمَةِ جريمَةِ المشاركَة فِى مُهمة إجرَاء التجاربِ العِلمية البشـريّة وَتَيْسيرهَا والعبَثِ بجثةِ الطفلةِ الميتةِ.

أمَّـا دنيا فكانَ الحكْم لهَـا بأمُومةِ الطفلةِ المسـتحيلةِ أو المتوحِّشةِ حيثُ إنـهَا حملتهَا وأرْضعتهَا.

وراحَ المحامي يُدَافع عَنْ أمومةٍ دنيا للطفلةِ المسْـتحيلةِ حتىَّ انَتهىَ الأمرُ بأحقيتهَا فِى أمُومةِ الطِّفلة.

كانـتْ دنيا فِى غِنًـى عَنْ هَذاَ الإعـلانِ. فطالمَا بقيتْ كَامِنَةً، بعيدةً عنِ الأنظَار، إلا إنـهَا كانتْ تنعمُ بشـعورهَا وبنوتهَـا.. أما الآنَ وَقدْ أجْهضُـوا فرحتَها بإعلان حَقيقَة استنسَاخ طفلَتهَا.. لَمْ يكنْ لديهَا مَا يدعُو للفرح أو السعادةِ بإعـلانِ أمومتهَا المُهـددة.. فقدْ أجهـضَ مَرَضُ إش إش بالتضخُّم فرحتهَا بهـذَا الإعْلان.واختفَى حارسُ المقبرةِ،

كمـا اختفى العالمُ أنتينورى عَـنْ إيطاليَا، أمَّا الأبُ فكانَ دورُه فِـى القضيـةِ ثانويًّا تمامًا مثـلَ دورِه فِى الحياةِ فى البيتِ، فهوَ لمْ يزدْ عنْ كونهِ منفذًا لرغَباتِ زَوْجته.

كانتِ المفَاجأةُ مُرْعبةَ بالنسبةِ لدنيا، مَعْرفتها باستنسَاخِ طفلتهَـا، وَرَاحت دنيـا تُصَلِّى مِنْ أجلِ ابنتهَا، وتشـفقُ عَليهَا مِنْ معرفتهَا تلكَ الحقيقة.

وَبُهِـتَ أدهم وهُوَ يقرأُ كلَّ سـطرٍ مِنْ تجربةِ أشـجَان العِلْمية واستنسَـاخهَا، وتذكَّرَ كَمْ كانَتْ تنقلُ لهُ شعورهَا بـأنَّ دنيا هِىَ أمهَا الحَبيبة ولكنْ ضحية مُجَرد أُمٍّ رسْمِية وحسْب، فهِىَ أخذتْ دورَ البطولةِ فِى حياتهَا لتعلبَ دورَ الأمِ ولكنهَا لمْ تتقنهُ بَعْد.

* * *

وكَمْ كَانت قاسـيةً تلـكَ الأحداثِ عَلـى كُلٍّ مِنْ دنيا وَأدهَم.. أمَّا أشـجَان فقدْ عَرفتْ كمْ أودَت بهَا أنانيةُ تلكَ الأم.. التِى تحدَّت القدرَ لتشبعَ غريزةَ الأمومةِ بداخلهَا.. فهَا هِى تحصدُ الآنَ مَا غَرسـته. لمْ تستطِعْ يومًا أنْ تكونَ ابنَـةً لهَا، لمْ تحبهَا بفطرتهَا، بَلْ كانتْ تروِّضُ نفسَـها عَلى حبهَا قدرَ اسْتطاعتهَا.

هروب البنت المستحيلة ..!

رَاحتِ أشجان تكتبُ كلَّ شيءٍ بلا خوف أوْ خجلٍ وبلَا حذفٍ أوْ إختصَار.

وتسجلُ تجربةَ حياتِهَا وَشكوكهَا وَعذابهَا حَتى تذَكَّرتْ أَدْهم، ورَاحت تستعيدُ أَحْلى لحظاَت حياتهَا معهُ وشَجرةَ مَأواهما الوَارفة الظلالِ، لمْ يفارقهَا أدهم منذُ أحبهَا، كانَ يتبعهَا كظلهَا أينمَا حلَت وحيثمَا كَانَت.

وبعدَ أنْ دوّنت كلَّ مشاعرهَا وسّجلت كلَّ آلامهَا، بدأَتْ تكتبُ رسالتهَا الموجَّهةَ إلى أدهم.

فلم تكتفِ أشجَان بتسْجيلِ مَا حدثَ فقطْ، بلْ شَرعت تتخيَّلُ مَا سوفَ يَحْدث بعدَ رحيلهَا أيضًا، كماَ تتوقعهُ وتتمنَّاهُ، فَراحت تتخيلُ حياةَ أدهم بعدَ رحيلهَا، وَإذا كانَتِ الحياةُ قدْ حَرَمتها تحقيقَ لقائهمَا، فلابدَّ أنْ يحيَا أدهم ويكُون مثلمَا تمنَتْ هِيَ وكأنها مَعهُ لَا تفارقهُ فَلْيحَقق حُلمهمَا رغمَ العواقبِ والظرُوف.

وَلنْ يكونَ وَحده وَشرعت تتخيلهُ وهى تَكْتُبُ:

وبعدَ أنْ دُفنت أشـجَان وَوَاروها الـتُّرابَ، وعادَ أدهم يحملُ وحْدهُ روحها في جَسَـده. لمْ يشـعرْ بألـم أو حزْنٍ مَا، كمَا شـعرَ الآخـرونَ لفراقهَا، لأنهَـا لمْ تُفارقهُ بعْد، وَإذا كانَ حَقًّا قدْ رحلَ جَسـدُهَا الآنَ وَسُوِّى فِى الترابِ، فجسَـده هوِ مـازالَ حيًّا. فـوقَ التراب، ليحمـلَ وحْده رُوحيْن.. روحهَـا وروحه معًا.. وفِـى آنٍ واحدٍ، ليحقِّقَ حُلـمَ حَبيبتهِ.. وَراحت تتخيله. وَظل أدهم ناجحًا، طلق البيَـان، عَارفا بمختلف الفنـونِ والآداب.. لتُقابله أجملُ أشـجَان مرةً أُخْرى، وَترافقه مشْوارَ حياتهِ علّهَا تحققُ لهُ مَـا عَجزتْ عَنْ تَحْقيقه حبيبتـهُ الرَّاحلة، وينجبُ أدهم أشجَان الصَّغيرة.

وَألقـتْ بالقلم برهةً مِن الوقتِ، وَسـالت دموعُها وَهي تتمنىَّ تجنُّب مَا جنتهُ، وتعاودُ تمسكُ بالقلمِ لتكتبَ:

لكنهُ سـيُنْجبها إنجابًا حقيقيًا هذهِ المرّة، دون الحاجةِ لأنابيب أو بُويضات أو أرحَام أو مُرْضعَات.

سـينجبُ أشـجَان الصغيرةَ دونَ اللجوءِ لعلماءَ وأطباءَ ومعاملَ وبحوثٍ والنبشِ فِي القبورِ، دونَ تحدٍ للقدرِ..!

سـينجبُ أشجانَ الصَّغيرةَ مِنْ زوجتهِ وحسْب، لتكونَ أشـجَان طَبيعيَّـة لَا عِمْلاقة وَلَا ضَخمة. لـنْ يكونَ هناكَ ضمـورٌ أو تـآكلٌ أوْ فحوصٌ أوْ زِنْزَانة. سـتكونُ أشـجَان صَغِـيرةً، رَقيقـةً، لتحلِّقَ كالفراشِ ليجـرِيَ خلفهَا أدهم العجوزُ وسـيلحقُ بهَا، كعَادتـهِ معَهَا ورغم كِبَره وَعُمره، سيلحقُ بهَا لا مَحَالة.

وأجهشَتْ بالبكاءِ، ثم توَالت كلماتهَا عَلى الورقِ. أمَّا أنَاَ أشـجَان المُسْتنسـخةُ فدعْنِي لألحقَ بالآخرةِ، كَمَا ظَللتُ عَلـى عهْدِي بـاقِ فعاهدنِي عَلِي تحقيقِ مَـا تمنيتهُ فَكنْ سعيدًا قدرَ اسْـتطاعتكَ يَا حَبيبي، حتَّى أستريحَ، وَتَأكد أننِي لنْ أرحلَ عنكَ أبدًا، وإذَا كانَ جسدِي قدْ رحَلَ عنكَ فروحِـي لنْ ترحلَ عنكَ بعْـد.. لأنهَا رَاحلةٌ إليكَ وحدكَ يَا حَبيبي.. سأرحلُ إليكَ لأسترْخي فِي قلبكَ الوثير.

وحين أنامَ.. تصحُو.. لينبضَ قلبكُ بِي..

وأدقّ بـهِ فـؤادكَ ذاكَ الصَّغِير.. لأسـرِيَ فِي دَمكَ.. أُجدِّفُ، أَسـبحُ أبحرُ، أرسُو، حيثُ شئتُ.. وكيفمَا ملتُ أميلُ.

كانتْ رسَــالة طويلةً. لمْ تكنْ رسَــالةَ حُــبٍّ، أَوْ نداءً أَوْحتىَّ شــكْوى، لكنهَا كانتْ رِسَــالة حيَاة، حياةٌ كُتبَ عليهَا العدمُ، حَياة لمْ ترَ فيهَا سِــوى المعَاناةِ، ورغمَ إنهَا كانتْ رسَالةَ لا تحملُ سَوى الدعوةِ للحياةِ، إلاَّ إنهَا كانتْ رسَــالةَ ودَاعٍ. وددتُ لــوْ أراكَ الآنَ.. أوْ يترفــقُ بِــى الله فيســمَح لِي بِرؤيَاك ولوْ لمرةٍ واحدةٍ قبلَ الموتِ.. ولكنْ عليَّ الآنَ أنْ أودعَــكَ.. فمِــنْ رحمةِ الخالقِ بنَا ألا يعلمَ أيُّ مِنَّا مَتَى تحينُ السَّاعةُ. فجأةً ترَاه أمامهَا..

أدهم ..!

تدفنُ وجههَا بينَ يديهَا وتنتحبُ.

يُساعدُهَا أدهم عَلى الهدُوءِ ويلملمُ أوراقهَا المبَعْثرةَ.

* * *

بذلَ أدهم قُصَارى جُهده مُحَاولًا تهريبهَا مِنَ المستشفَى ولكنْ كيفَ؟ وَهي بكلِّ هذاَ الحجْم الهائل الضَّخم؟

وَقَبلَ الحارسُ مُسَــاعدته مُقَابِــلَ مَبْلغ كبيرٍ من المال، لمْ يرَ أدهم أمَامهُ مَنْ يُسَــاعدهُ فِي ذلكَ الأمرِ، ســوىَ دنيا الَّتِي ظلّت تمنحُ وتُعطى كلَّ مَا بِوُسعهَا لأشجَان، فَهِيَ أمٌّ

والأمومَــةُ عَطاءٌ.. وَعَطاءُ الأمومَة غَريزة لابُدَّ مِنْ إشــباعهَا وَإلاَّ دَمَّرَتِ العالمَ مثلمَا فَعلت ضَحِيَّة.

نجحَ أدهم فِي إيجَادِ وسيلةٍ لِهروبهَا، وخرجَ أدهم تحمِله أشــجان عَلى كتفهَا، وقدْ بَدَا لهَــا وكأنه طفلهَا الصَّغير، ولكنهُ كانَ كبيرًا شــامخًا فظلَّ يُرشــدهَا إلىَ الطريقِ الَّذِى حددهُ لِهرُوبهَا.. وسَــارَا حتَّى جلسَــا سويًّا وسطَ الأشجَار والزهُــورِ، ظنَّا أنهمَا بعيدًا عنِ العيونِ، هدأتْ مُتكئة عَلى جذعِ شَجرةٍ وَارفة الظلاَل، سَاكنة هِىَ، مُطْمئنة.

* * *

كــمْ مضَــى عليهِ مِنَ الوقــتِ هكذاَ وهو يقــرأُ، وهِىَ مُســتغرِقة فِى سُــباتهَا العَميق..؟ سَــاعَاتٍ.. وسَاعَات طَويلةٍ مرَّتْ وَهِىَ فِى نومٍ عميقٍ، وكأنهَا لمْ تنمْ منذُ عهدٍ طويلٍ. ومَا إن أشرَقت الشَمسُ حتَّى طَوى أدهمُ صفحَاتِ أوراقهَا. وبمجــردِ أنْ رَاح يمرُّ بأصَابعهِ عَلى شــعرِهَا، حَتى فتحتْ عينيهَا لتبصرَهُ بجانبهَا، فابتســمَت وقد نَســيتْ كلَّ شىءٍ إلاَّ وجُوده معهَا. كَلَّا لمْ يشْعُر للحظةٍ واحدةٍ بالخوفِ منهَا رغمَ التحذيراتِ التِى كتبتْ عنهَا

لَقَــد بدَت أمامهُ كحُورية منْ حُورياتِ الجنةِ هكذَا كانَ يراهَا أدهم.

ورغــمَ أنَّ الصَّخبَ والـدَّوِيَّ كانَا يرتفَعان فِي كلِّ مكانٍ حيثُ انتشَــر بســرعةِ البرقِ خبرُ هروبِ البنتِ المتوحشةِ والبنــتِ تحملُ أســرارًا مجْهولــة غَريبــة، وأمرَاضًا غَيْر معروفَةٍ بَلْ وَغير مسبوقةٍ، عَدْوى مجهولَة الهويَّة للآخرينَ إذَا انتقلتْ إلِيهِمْ..

فلا يجبُ الاقترابَ منهَا أو التســتُّرِ علَيهَا وإخفائهَا بأىِّ حالٍ منَ الأحوَال.

وَأُعلنــتْ حالةٌ منَ الطَّوَارئ غير المســبوقة فِي ســائرِ الطرقــاتِ، وأُعْلِنَ حظْرُ التجوالِ فِي المدينةِ وعدم الخروجِ مِنَ المنازلِ لحينَ العثــورِ عليهَا.. وَهَلعت الجماهيرُ خوفًا مِن البنتِ المتوحِّشــة (هكذَا أطلقُوا عليهَا) وخرجَت قواتُ الشُّرطةِ يَمينًا وشمَالا بحثًا عَنِ البنتِ المتوحشةِ.

كلاَّ..!

لمْ يشــعرَا بهوْلِ وفــزَع وهَرْوَلةِ الجماهــير الَّتى كانتْ تصخبُ مَنْ حولهمَا. وكأن الحبُّ الذِى بينهمَا أســكرهمَا

فلمْ يعيَا بأيِّ شيءٍ حولهمَا سِوَى وجودهمَا سويًّا .

فيقولُ لهَا :

– كــمْ كانتْ الأيــامُ سَــخِيَّةً،فِي عَطَائهَــا لِي بالآلامِ يَا أشجَان.

وَفَجْأَةً تمَّ العثورُ عليهمَا.

وبمجــردِ أنْ اعتدلتْ فِي جِلْسَــتهَا حَتَّى أشــارَ بعضُ رجالِ الشرطةِ تجاههَا.

* * *

مناجاة الموت ..!

كانتْ لضخامتهَا تسيرُ. ومَا هِيَ بسائرةٍ، لكنهَا مُحطِّمةً لكلِّ مَا تمشِــي عَليه.. فِهيَ ثقيلــةُ الوزنِ.. كبيرةُ الحجمِ وسارَا سويًا بعيدًا عنِ الناسِ...

وبمجــردِ أن سمعَ النــاسُ بيَان هُروبهــا هرولُوا بفزعٍ يجــرونَ يمينًا وشمالا، بحثًا عنْ مَـلاذٍ يقيهمْ منهَا، كانُوا يفرونَ منهَا قبــلَ العثورِ عليها فرارهُم منَ الموتِ، وَكأنهُم خرجوُا مِنَ الأجْداثِ فراحُوا مِنْ كلِّ حَدَبٍ ينْسِلُونَ.

* * *

وكانَ صــوتُ الضجيــجِ والفــزع يملأُ المدينــةَ فتوقفتْ أشــجَان عَنِ الســيرِ، وهِيَ تَرى النَاسَ وكيفَ يَخْشــونهَا هالهَا المنظرُ..

وَلم يُفْزِع الناسُ قدرَ فزعهَا منْ رؤيةِ فَزَعهم منهَا.

وظهرَت أشجَان بضَخامتهَا المفزعَةِ، لتدمرَ كلَّ ما يقعُ تحتَ قدميهَا دونَ قصدٍ أوْ نيّةٍ وهَي لا تعْلم.

وَهَرْولَ الناسُ مِنْ بيوتهمْ كالفراشِ المبثوثِ بحْثًا عَنْ ملاذٍ يَقيهم شرَّ ذلك الكائنِ المتوحشِ.. الحاملِ لأمراضٍ وأسرارٍ مُدَمِّرةٍ.

لَمْ يتحقَق أحدٌ مِنْ رُؤيةِ ملامحهَا لضخامتهَا، فشعرهَا الكثيفُ الطويلُ كانَ يتدلَّى فوقَ ظهرهَا فيغطِّي أسفلَ ردفيْهَا. فبدَتْ لهُم كجنيةٍ مُخيفة مُدمِّرَة منْ أبطالِ الأساطير المُرْعبة.

فلمْ يتبعْ أثرهَا أحدٌ مِنَ الجماهير خوفًا منهَا. بلْ فرُّوا منهَا فرَارهم من الموتِ لا تعرفُ أشجَان لماذَا وإلى أينَ هرَّبهَا أدهم؟ ولماذَا أذعَنتْ لرغبتهِ تلكَ هكذَا فجْأةً؟ وهِىَ تعلمُ جيدًا صُعوبةَ. بَلْ واستحالةَ الحياةِ معهَا.

قالتْ له باضطرَابٍ وهِىَ ترْتعِد:

- انظرْ يَا أدهم.. كيفَ يفزَعُ الناسُ منِّى الآن؟ كيفَ تتهدَّمُ الأشياءُ تحتَ قدمِي؟ لماذَا أذعَنتُ لكَ وَجئتُ معكَ وَطاوَعتكَ؟ لماذَا؟

وَراحَت دموعُهَا تسيلُ فوقَ خدَّيهَا.

وَأردفتْ تقولُ: كانَ أهونُ علىَّ أنْ أموتَ على أنْ أرى الفزَعَ والرعْبَ يملآنِ عُيونَ النَّاسِ..؟ ليتنِي أموتُ الآنَ؛ كىْ أريحَكَ وأريحَهم وَأستَريحَ؟! وَراحتْ تنتحِبُ.

ولكنهَا كانتْ تجدُ رغبةً قويةً فِى طَاعتِهِ..

رغمَ إحساسِهَا بقربِ النهايَةِ، إلاَّ إنهَا آثرتْ الموتَ معهُ علىَ موتهَا فِى الأسرِ وحدهَا فِى زنزانةِ المُستشفَى.

وعادَ أدهمُ جبَّارًا.. يهزُّ صُرَاعُه الكونَ منْ أجلِ حَبيبته.

وَقدْ حَاولتِ القواتُ عدمَ قتلهَا ورميهَا بالرصَاصِ، برغم إنهَا فِي أثناءِ سيْرهَا، دَمَّرتْ خطواتُهَا العريضَةُ الواسعةُ الثقيلةُ العدِيدَ منَ المتلكات، وهلعَتِ الجمَاهِيرُ وهَرْولتْ بحْثًا عَنْ مكانٍ تلوذُ بهِ خوفًا مِنَ البنتِ المتوحِّشَة.

* * *

كانتْ تراهُم بعينِ الأَسَى..

الجميعُ يخافونهَا..

ورجال الشرطةِ يهددونهَا بإطلاقِ الرصَاص، والكلُّ لا يرحمهَا إلاَّ قلبٌ واحدٌ نفضتهُ بقوةٍ ليبتعدَ عنهَا حتّى لاَ يُصيبه أذَى منْ طلقاتِ الرصَاص.

وَتوالت صَرَخاتُهَا برجَاء أدهم بالابتعادِ عنهَا حتّى لاَ يأسرونهَا عَلى قيْد الحيَاة..

لكنَّ أدهمَ تشبثَ بهَا مُتعلقًا بآخرِ أملٍ فِي البقاءِ معهَا، ولمْ يطلِ الصراعُ بينهمَا وبينَ رجالِ الشرطةِ الذينَ قررُوا إطلاقَ الرصَاصِ عليهَا..!

مَاذا فعلَ بهَا المرضُ؟ كانُوا يُوَلّونَ فزعًا ورعبًا منهَا..

صرخَ أدهمُ وهُوَ يُحَاولُ دونَ تحقيق ذلكَ صَارخًا:

مُسْتحِيل..

لا تقتلوهَا..

وَإن ظفرتمْ بقتلهَا فاقتلُونى قبلهَا.

وأطلق عليهَا الرصـاصُ الواحِدَةَ تلوَ الأُخرى، وَراحتْ كلُّ رصَاصةٍ تُدمِى قلبهُ قبلَ قلبهَا.

– أدهَم لقد تمنيتُ الموتَ وأنتَ بجَانبِى حتىَّ لَا أُعانِى منَ الوحدةِ وَالخوفِ مرةً أُخرى.. أودُّ أنْ أرتاحَ إلى الأبدِ.. وَهَـا أنا أحقـقُ أحلامِي.. أرجـوكَ يَا أدهـم لا تبكِ مِنْ أجْلِي.. لقدْ تعاهدنَا أن يسـعدَ كلانَـا الآخرَ فلاَ تعذبنِي وتتعذَّبُ برحِيلي.

– أنْـتِ ترحَلينَ إلىَّ يَـا حَبيبَتِي، ترحلـينَ إلىَ قلبِى فلتهدَئِي وَتسْكُنِي.

– أرجوكَ يا أدهمْ لَا ت.. بْ.. كِ...

وَهَدأتْ وَغَابتْ عَنِ الوعْي.

مَدَّ يدُه إلى يدهَا العريضَة الضَّخْمة الضَّعِيفة الوَاهِنَة..

وَضعهَا عَلى صَدْره.

كأنمَا يريدُ أنْ يمدَّ حياتهَا بتلكَ البقيةِ الباقيةِ فِى قلبهِ مِنَ الحياةِ لتعيشَ معهُ. لاَ يصَدِّقُ أنهَا رَحلت..

يلتفـتُ يمينًا وشمـالًا.. نظراتٌ مُضطربـةُ مَذْعورةٌ.. يصرخُ.. كَلاَّ..

لنْ تموتِي.. وفجأةً سكنت وَتماسَكَ. سَاكنة هِيَ وليسَتْ نَائمة.. ليسَ عَلى وجهِهَا أثرُ مِنْ آثارِ الآلامِ الَّتِي يقاسيهَا المَرْضى.. يحسبهَا الرائِي نائمةً ومَا هِيَ بنائمةٍ..

لقد مَاتَ كلُّ شيءٍ دونهَا ولمْ يبقَ سِوَاهَا..

وَجُنَّ قائلًا:

إنهَا ستَصْحُو الآنَ. صَدِّقوني..

إنهَا نائمة.. فلا تزعجُوهَا.. لاَ تقلقوهَا..

دعوهَا وشأنهَا.. بلْ دعونَا وشأننَا..

وراحَ يصرخُ بلا صوتٍ ويبكي بلَا دموعٍ..

* * *

كَانَ أدهم قَدْ قاسـَى كثيرًا فِي تلكَ الأيامِ الأخيرةِ التِّي قضتهَا أشجَان خاصَّةً الساعَات الأخيرَةِ.. ولكنْ مَا قاسَاهُ فِي تلكَ الليلَةِ، كانَ يفُوقَ طاقتهُ واحتمَالهُ كإنسَـان.. فقدْ كانَ الأثرُ الذِى تركتهُ أشـجَان فِي نفسهِ كفيلًا بأنْ يضلهُ عنِ سـبيلِ التفكيرِ السـليم.. كانَ حبُّهُ لهَا بمثابةِ جميعِ الأدلةِ التِي تدحضُ أيَّ اعتقادٍ برحيلهَا وفنائهَا.

وحملوهَا رغمًا عنهُ.. نزعوهَا منهُ..

لم يحملْ نعشَـهَا عـددٌ منَ الرجالِ بلْ حملتهُ سـيارةٌ ضخمةٌ. ولمْ يفارقْهَا أدهم لحظةً واحدةً..

كانَ نعشًـا فريـدًا.. لمْ يكنْ له مثيلٌ مِـنْ قَبلُ.. كانَ صامتًا.. بلْ واجمًا.. مذهولا..

يسيرُ وراءهُمْ حتّى حملهَا معَهُم فوقَ كتفهِ.

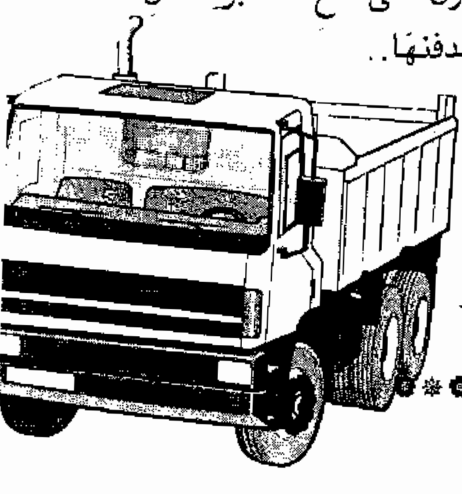
وفِى حـى الموتَى الـذِى يختلفُ كلَّ الاختـلافِ عَنِ الأحيـاءِ العاديةِ، إذ ليسَ هناكَ مَسَـالكُ وشـوَارِع كمدنِ الأحياءِ حيثُ لا يسكنُ هنَا سِوَى الموتَى.

ورغم أنَّ النهارَ كانَ يملأ الأرْجاء، والشمسُ الَّتِى كانتْ تتوهَّجُ.. إلاَّ أنَّهُ شعرَ بأنَّ الظلامَ كانَ شديدَ الحِلْكَةِ.

وجـاءَ خَـدَمُ المقابِرِ يتسـابقونَ عَلى فتحِ المقـبرةِ لدفْنِ أشجَانَ فِى نفسِ قبْرِ تَوْأَمَتِهَا ومدفنهَا..

كانَ قـبرًا مميـزًا وثيرًا غيرَ كلِّ المدافنِ التِى ألفناهَا..

فلمْ يكـنْ هناكَ أسـهل مِنَ العثورِ عليهِ بـينَ مدافِنَ ومقابِر



الآخرينَ.. إذْ إنَّهُ ليسَ كسـائرِ المقابر.. فليسَ هناكَ أيسرُ ولا أسـهلُ مـنَ العثورِ عَلى قبرِ الطفلـةِ الصَّغيرةِ الوَثير.. لأنـهُ مزيَّنٌ بأزهَـارٍ وَخُضْرة، مُختلفٌ عَنْ سـائرِ القبور، فهناكَ بُستانى القبورِ الذى كُلِّفَ بعنايةِ هذا القبرِ منذُ دَفْن الطفلة به مُقابل مَبْلَـغ مِنَ المالِ يتقاضَاه شَهْرِيًّا. كانَ القبرُ الوحيدُ الذى يُظَنُّ أنَّـهُ بمثابةِ البُسْتان.

وفُتحَت المقبرةُ..

للمرَّة الثَّالثة..

لدفنهَا مرةً أُخْرى..

مَـا هذا الإزعَاج الذى يُسـببونَهُ للموتَـى وللطفلةِ الصَّغيرة البريئَة.. التَّى لمْ تهدأْ بعدُ فِى رقدتهَا.. وفى مقبرتهَا تلكَ..

فأباحُوا جثتهَا..

ثم أعادوهَا..

ليلْقُوا بهَا مرةً أُخرَى..

وللمرةِ الثالثةِ يعيدوهَا.. كَبيرةً عِمْلاقةً.

حفرَ أدهمُ قبرهَا بيديْهِ.. بلاَ خوفٍ أو وَجَل..

غريبٌ هو أمرُه.. ظَلَّ – صَامتًا..!

وكأنَّ النوايَا الَّتِي كتمهَــا بِدَاخله جَعَلته بهذَا الصَّمتِ والوجُوم وليسَ الاستســلامُ، لأنــهُ قطعًا مُنفذهَا دونَ تردُّدٍ أوْ خوفٍ أو وجَلٍ.. وبعدَ أنْ نزلَ خَدَمُ المدافنِ وَمَعهم أدهم ليرقدوهَا فِي الغرفةِ المظلمَةَ مِنْ جديدٍ..

صَعــدَ خَدَمَةُ المدافــنِ وحراسُ القبــورِ إلىَ أعلىَ المقبرةِ وانتظــرُوا.. وانتظرُ مَعَهم أهلُ أدهم، وأهلُ أشــجَان..!! فَمَا بَاله لمْ يصْعَدْ بَعْد.

نادُوا عليهِ..

أدهم.. أدهم.. أدهم..

فلمْ يجبْ..

وَعلت أصوَاتُهم، بلْ صرَاخ بعضهنَ:

أدهم.. اصعَدْ يا أدهم..

كلاًّ لمْ يسمعْهُم بَعْد.. لقدْ رقدَ أدهم بجوارهَا.

وَأغمضَ عينيْهِ.. مثلهَا تمامًا..

وَهَدَأ..!! وصرخَ الجميعُ أدهم..

وتوالتْ صرخَاتهم كلَّا لمْ يُجِب..

لمْ ينطقْ.. لمْ يتَحرَّكْ..

وكيفَ يُجيبهم وهُوَ لمْ يسْمعْهم قَطْ..؟ كانَ يَسْمعُ صَوْتَ أشجَان فقط وَهِيَ تُنَاديه:

- إنــيِّ خَائفة يَا أدهــم.. لا تَدعْنِي فِــي تلكَ الظلمةِ وحْدِي..

وَرَاحَ يُحدثهَا: لــنْ أترككِ يَا حَبيبَتِي.. فأنا معَكِ أينمَا كنــتِ.. فلتنامِي ولتهدئِي عَلَّنَا نَسْــتـريح ســويًّا مِنْ هَذِه الدنيَا وراحَ يودعُ الدنيَا وَيغنِّي أنشودةَ الوداعِ:

سَــلَامٌ عَلَـى الدنيَـا سَـلَامَ مُـوَدِّعٍ
رَأَى فـِي ظَلَامِ القَبْرِ أنسًا وَمغْنَمًـا
أَضَرَّتْ بـِهِ الأولَى فهَـامَ بِأُخْتِهَـا
فإنْ سَاءَتِ الأُخْرَى فوَيْلَاهُ مِنْهُمَا(-)

كانَ يحدثهَا بصوتٍ غَيْرِ مَسْموع.. لا جاهرًا وَلَا خافتًا..
وانتظرَ..
انتظرَ بفارغِ الصبرِ أَنْ تفتحَ عينيهَا..
لتصحُو مِنْ نومهَا كمَا فَعَلت منذُ ساعاتٍ..
لكنهَا لمْ تفعلْ.

(-) الشاعر حافظ إبراهيم

وفجاةً..!

وَجَدَهــمْ ينتزِعُونَــهُ إنتزاعًا منْ جانبهَا.. أمســكَ بهَا مُتعلِّقًا.. وتوالتْ صَرَخاتُهُ كطفلٍ يتشبثُ بأمهِ.. لكنهُ فشلَ فِي البقاءِ معهَا. وتوالتْ صَرَخاته عَنيفة قَاسِيةً ترجُّ المقابرَ فتخــالُ الموتَى، ينبعثُونَ مِــنْ أجْدَاثِهِم، لفزعِهم، وكأنهَا فَزْعَةُ البعْثِ. وأقصُوه عنهَا ورَاحُوا يغلقونَ المقبرةَ دونه.

ومنذُ هذَا الحِين، راحَ أدهم يَهْذِي بهَا فِي كلِّ مكانٍ.. أتظنونَ أنهَا مَيتة؟

كلَّا.. إنهَا نَائِمَة.. فقطْ نَائِمَة.. وليسَت مَيِّتة..

وَجُنَّ قائلًا:

كلَّا.. إنهَا خُلِقت الساعةُ فقطْ.. وَرُدَّت إلىَّ..

لَقَدْ ماتَ بموتهَا كلُّ حيِّ فِي هذَا الوجودِ..

وراحَ يضمُّ رِسَــالتهَا التِي لمْ تفارقهُ لَحظةً بينَ ضُلُوعه، فهِيَ كلُّ مَا تبقَّى لهُ منهَا..

ينتظرُ الموتَ ويغنىِّ بهَا مِنْ كربهِ فينادِي الموتَ قائلًا:

يــامــوتُ قــدْ مزقْــتَ صَــدْري

وقصمْــتَ بــالأرزَاءِ ظهْـــــرى

وَفَجعتِنــــى فيمَـــنْ أحـــبُّ
وَمَـــنْ إليـــهِ أبثُّ سِـــرِّى
وهدّمــتَ صرْحًــا، لاَ ألــوذُ بغيــرِهِ
وَهتكْـــتَ سِتْــرِى
وَفقدتَ كفًّــا، فــِى الحيَــاةِ
يَصُـــدُّ عَنـــىَّ كُـــلَّ شَـــر
وتركتنــِى فِــى الكائنَــاتِ أئِـــنُّ
مُنفَـــرِدًا بإصــــرى،
وأجـــوبُ صحـــراءَ الحيَـــاةِ
أقـــولُ: أيــنَ تــراهُ قبـــرى؟
مَـاذا تـودُّ مِنَ المعذبِ فِي الوجـــودِ
بِغَيْــــرِ وزْرٍ؟
خُذْنِي فَمَا أشقَى الَّذِى يَقضِى الحياةَ
بمثْـــلِ أمْـــرِى( )

( ) أبو القاسم الشابى